الكتاب الثانى

« هب معى أسوأ الفروض ، وأن يدى قطعتا ، وساقى فصلتا ، وبقيت كتلة لحم ملقاة بجانب حائط ، حيث لا أستطيع الحركة ولا دفع الأذى ، فسيلذ لى أن أعيش لأشاهد موكب الحياة الذى يسير أمام عينى ، على أنى أشك فى أنى سأكتفى بالنظر إليه ، فأن لى رأسا يفكر أومن بكفايته ومقدرته . . . . »

على فراش المرض

يناير ١٩٣٤

ظلمت ألفريدا ، وظلمت عائلة ألفريدا ، وأنزلت بهم جميعا عار فض الخطبة وظلمت نفسى . فقد كنت كلفا بخطيبتى شديد التعلق بها ، كما كانت كلفة بى ، كريمة إلىّ . يحب أحدنا الآخر أكثر من نفسه ، فلم تقو أعصابى على تحمل هذه الصدمة ، فلزمت الفراش وساءت صحتى ، وخف وزنى ، حتى خيف على .

والعجيب فى هذه المأساة أن الذى طببنى هو عم ألفريدا الدكتور (كروزا) وأن التى مرضتنى هى أم ألفريدا حتى أنها اضطرت عدة أيام للبقاء بجانب فراشى . ولا أذكر أننى فتحت عينى طول مدة مرضى إلا على قريب أو نسيب أو صديق لألفريدا وآلهانى غرفتى . ونافس الرجال النساء من عوّادى فى حمل الزهور والهدايا إلىّ . وتأنقت السيدات فى ترتيب غرفتى وتنسيقها حتى أخذت شكلا غير الذى عرفته .

وابتدأت أسترد صحتى فى الثلث الأخير من ذلك الشهر ولكن الطبيب أمرنى أن لا أغادر الدار قبل نهايته فأذعنت لمشورته .

ولم يجر ذكر الفريدا على لسان أحد طول تلك المدة . وكم كنت متلهفا لمعرفة شىء عنها ولكنى كنت أكتم تلك اللهفة فى قلبى فأحس النار تأكل فى حنايا صدرى فأصبر على الرغم منى متحملا آلام نفسى وحدى . وكم من مرة أوشك الشوق فيها أن يغلبنى ، فكنت أهم بالسؤال عنها ، فأفتح فمى ثم تتغلب علىّ كبرياء البدائيين فأقفله عاضا بشدة على شفتى ! !.

ولما اطمأن عم الفريدا إلى صحتى استأذننى فى اصطحاب زوجه وابنتيه وولده فى المساء ليتناولوا معى العشاء فى غرفتى ، وليقضوا السهرة معى احتفالا

بنجاتي من الخطر ، على أن تحضر زوجه بعد الظهر لطهى الطعام بنفسها . وترك لى الخيار فى دعوة من أشاء من اصدقائى ، فقبلت عرضه ورجوته أن يتصل بامرأة أخيه والدة الفريدا ليدعوها عنى ، واتصلت بنصر بن ابراهيم بالتليفون ورجوته فى زيارتى . وانتظم عقد الزوار فى المساء ولم ينقصهم أحد غير فراو برجمان أم خطيبتى ، ولكنه لم يمض وقت طويل حتى دقت علينا الباب وسلمت معتذرة عن تأخيرها قائلة :

« أخرنى عن الحضور أنى كنت أعد حقيبة سفرى ، فأنا مضطرة للسفر الليلة إلى سويسرة ، فقد أبرقت لى إحدى صديقاتى فى جنيف أن الفريدا سقطت فى الطريق مغميا عليها وقد نقلت إلى احد المستشفيات فى حالة سيئة . . . . »

وهنا ضعف صوتها أو ضعفت اذنى فلم تقو على نقل صوتها إلى رأسى . .

ويل لى ما أشقانى ! لقد قتلت الفتاة وأشقيت هذه العجوز ليثأر الله لها منى ! ولم أجرؤ على التلفظ بكلمة واحدة .

ثم سمعت فراو برجمان تستأنف الحديث موجهة كلامها إلى الدكتور كروزا قائلة .

« أكون شاكرة لك أنا والفريدا لو اصطحبتنى فى هذه الرحلة . هذا طبعا إذا لم تحل أعمالك دون السفر فأنا شديدة الخوف على الفريدا »

فأجابها الطبيب على الفور : «معذرة يا امرأة اخى ! لم تعد تحتل الفريدا من نفسى المكان الذى كانت تحتله من قبل ، ولا أكون مبالغا إذا قلت انها باتت غريبة إلى منذ اللحظة التى رضيت فيها ان تفترق عن هذا الرجل . . ولو كان أخى على قيد الحياة لما صنع غير ذلك . وهل ننسى لها سوء فعلتها مع طريد مشرد تآمرت عليه الأحداث ، وهو خطيبها ، وأنها بدلا من الترفية عنه كادت تودى بحياته »

فاعتدلت فى جلستى وأردت أن أصيح - أنت تظلمها أيها العم ، لم تأثم الفريدا إنما أنا الآثم . وأنا بدورى لم آثم ، فليس الشر فى طبيعتى ، ولكن سوء حالى وتربيتى البدائية هما اللذان جنيا علينا - غير أن صوتى حبس فى حلقى

وردت عليه فراو برجمان وقد ندبت عيناها ففتحت حقيبتها لتبحث عن منديلها : « لولا أنها ابنتى ووحيدتى لانضممت إليك . فمن منا لا يحبه . إن حبى له لا يقل عن حبى لألفريدا » واحتبس صوت العجوز فى صدرها وأخذت تتلمس الحائط بيدها لتستند إليه . وتحسست مقعدى تحتى وتشبثت به وكشحت بوجهى عن الحضور وحدقت أمامى فى الهواء .

وتحولت إلى الأبصار وبدا فى نظرات أصحابها آية الرجاء وكأنى بهم ينتظرون على قلق كلمة القاضى فى قضية حياة أوموت . ومضت لحظة كانت أطول من الدهر . وأبى القاضى أو أبيت أنا أن أقول شيئا . فقطعت الصمت إحدى الزائرات قائلة :

« لعنة الله على القدر الظالم الذى قضى قضاءه المر فى الخطيبين . أنا أعرفكم جميعا بالفريدا ، وبحبها لخطيبها ، حب عميق لم تشبه ولن تشوبه شائبة ومن يدرى ... »

فاستجمعت قواى وصرخت ، كفى أيتها السيدة ! كفى يا أماه ! كفى أيها الناس ! أتتحدثون عن حب الفريدا لى وهل شككتم فيه يوما ؟ ثم لماذا لم تتكلموا عن عشقى وافتتانى بها ؟ ولم تنسون أنى شرقى مصرى نشأنى ابى على الفطرة ، فعلمنى أن الرجل الذى تعجزه الحاجة عن القيام بتكاليف الزوجية ليس له الحق فى الزواج ، وان الرجل لا يكون رجلا إذا عاش عالة على زوجته ، وانه لا حيلة لى فيما أتيت فالناس فى كل مكان وفى كل زمان عبيد العادة ؟ ومما اخذته كذلك عن أبى أن لا أعود فيما أبرمت وأن لا أبكى على اللبن

المكتوب .. ولكن أحدا لم يسمع صرختي غيري انا فقد كانت صرخة المذبوح التي لا يسمعها غير صاحبها ، يسمعها بقلبه لا بأذنه .

وسلمت والدة الفريدا وقالت وهي تودعني « سأحمل سلامك لألفريدا »

فلم أحر جوابا وخيم الصمت على الحضور فترة من الزمن حتى مزق ستره نصر بن ابراهيم قال :

« لو كان للأوربيين ذكاء الشرقيين ومعرفتهم لعرفوا سر هذا الذي حدث ولو كان لهم إيمانهم لاحتاطوا للنكبة قبل وقوعها » !

قلت لنفسي : صمت الرجل دهرا ونطق كفرا . ورأيت التدخل لزاما على لأنقذ الموقف فقلت له .

« أنا شرقي ولا أعرف السر ، وإيماني أشد من إيمان العجائز وفاتني الحيطة التي قلت عنها فاكشف لنا عن السر وعن طرق الوقاية » .

فابتسم ابتسامة السخرية وقال : « لا تقحم نفسك بين المؤمنين فانت تؤمن بعلوم الغرب ومدنيته وليس كل شرقي شرقيا . انها العين ! لقد أصابتكما عين السوء ، واندفع يقص علينا قصصا عجيبة عن تأثير عين السوء ومقدرتها على الشر وأنها قد تحيل الطعام إلى سم زعاف ، وتمرض الصحيح ، وتفرق بين المتحابين . وان الاحتياط من أذاها واجب على كل عاقل رشيد ، وانه بفضل احتياطاته الخاصة لم يصب بسوء مدة إقامته في المانيا وهي تربى على العشرين عاما .

وابتسم الرجال ابتسامة لها معناها . وتضاحك النساء وملن على بعضهن يتهامسن ويتغامزن وكأن مؤامرة دبرت بينهن . ثم تقدمت اليه زعيمة المتآمرات متسائلة . « وكيف احتطت أنت لنفسك من عين السوء ؟»

قال : « بالرقى . والتعاويذ »

قالت : « هل لك أن تعلمنا ما علمته ؟ ليتك تقدم لى رقية ! ! فأنا أحب زوجى وزوجى يحبنى ، وأخشى أن تصيبنا عين السوء فتحدث قطيعة بيننا فيجن المسكين . . . . »

فقاطعها زوجها ضاحكا : « وأنت ؟ ألا يجن جنونك ؟ »

فأجابها نصر بن ابراهيم : « لا . لن تفيدك رقانا وتعاويذنا . فهذه آيات من الذكر الحكيم وانتم كفرة لا تؤمنون بدين المسلمين . »

فقالت إحداهن : « وزوجك أنت ؟ إنها كافرة فلماذا تفيد تعاويذك فيها ؟ »

« ومن قال لك ذلك ؟ انها كثيرة التوعك »

وكان كثير من الحضور يعرفون شيئا عن تعصب نصر بن ابراهيم وجموده ، فحملوا كلامه على سبيل الفكاهة . وانتقل الجمع من حديث الفريدا وعين السوء إلى غيرهما من شتى الأحاديث . وخاضوا فى السياسة والأدب والاجتماع . فكانوا كالطيور يتنقلون من فنن إلى فنن حتى إذا انتصف الليل سلموا وخرجوا ، وبقى عندى نصر بن ابراهيم وحده ،

ولأول مرة سألنى عن حالى المادية

قلت : « على اسوأ ماتكون ولم يبق لدى إلا بضعة ماركات تكفينى يومين أو ثلاثة . وقد أصبح الشهر الجديد على الأبواب ، ولا أدرى لى مدخلا أو مخرجا ، ولا سبيل لدفع كراء غرفتى »

قال فى لهجة الجاد : « أنا مستعد أن أقرضك مائة مارك حتى تصطلح الأمور » وهم بوضع يده فى جيبه .

قلت : « لا . أشكرك أنى لا أرى فرجا قريبا ولا بعيدا ولا أحب أن أستدين فى مثل هذه الحال . »

قال : « إذن تستطيع أن تتناول عندى طعام الغداء بالمجان فلن يكلفنى شيئا .

وثق تماما أننى أطهى بالزبد ، وأن لحم الخنزير لم يدخل دارى وسترحب زوجى بك فهى تقدرك أكثر من بقية الشرقيين . »

قلت : « هذا ايضا لن أصنعه ، فليست مطالب الحياة عندى قاصرة على طعام الغداء ، فضلا عن أن دارك تقع خارج المدينة ، ونفقات الانتقال توازى أجر الطعام . »

« وماذا تريد إذن ؟ »

فصرخت فيه : « عملا ، عملا ، عملا ! ! أريد أن أعيش كأنسان له كرامة يؤدى عملا منتجا فى الحياة ، ويكسب خبزه بعرق جبينه . ولا أحب أن أعيش عالة على أحد حتى ولو كان أصدق صديق لى أو أقرب قريب . » وهنا بح صوتى وتهدج : « أأطلب بدعا فى هذه البلاد ؟ إذا شئت أن تساعدنى بحق فلتعطنى عملا عندك كيفما كان . أنى لا أستنكف نوع العمل ولكنى أستنكف أن أعيش عيشة الطفيليات آكل وأشرب من دم الناس »

فبدت علامات التأثر على وجه الرجل الساذج وقال لى :

لقد اضطررت إلى توقيف عملى طبقا لقوانين الرايش الثالث الجديدة وصرفت عمالى ، وأنا أعيش منذ شهور من مالى المدخر فى السنين الخوالى ، على أنى سأفكر فى أمرك ولابد أنى موفق لايجاد عمل لك بإذن الله . » وأخرج من جيبه مصحفا مكتوبا بالخط المغربى وفتحه وأشار إلى موضع فيه وقال لى : « كلما كربك الهم إقرأ هذه الآيات الثلاث تسعا وتسعين مرة يفرج الله كربك » وسلم ، والساعة تدق الواحدة بعد نصف الليل .

عجيب أمر هذا الرجل ، لقد مضى عليه اثنان وعشرون عاما فى أوربا ولم تغير أوربا منه شيئا غير الزى . أستغفر الله فأنه لايكاد يدخل داره حتى يخلع ثيابه ويرتدى ثوبا أبيض فضفاضا مما يلبسونه فى بلاد الجزائر ويضع عمامة بيضاء فوق رأسه .

غادرت الدار لأول مرة فى يوم ٣٠ يناير إلى منتزه فكتوريا لويزا لقربه من دارى فلم أستطيع الجلوس هناك من شدة البرد ، فأخذت أطوف حواليه ولحظت شابا ألمانيا يدور دورتى . وبعد دورتين التقينا وجها لوجه ، فتقدم إلى ورفع قبعته وطلب منى نارا ليشعل سيجارته ، فقدمت له كبريتا وشكرنى وهو يعيد إلىّ علبة الثقاب ثم قال :

« الجو اليوم شديد البرودة ولم يبق إلا الذهاب إلى المربط . »

فقلت له : « وما هو المربط ؟ »

فضحك من كل قلبه وقال : « أأجنبى أنت ؟ ألا تعرف المربط ؟ تسونز قهوة تسونز فى شارع تونسن . مكان دافىء نظيف ورخيص يختلف إليه فقراء الفنانين . »

« صدقت أنا غريب . صحفى مصرى . ربما التقينا قريبا هناك . »

« اسمى شولتسا ، معروف هناك للجميع . شولتسا المصور ، هـذا اسم لا يمكن أن تنساه . » ومديده قائلا : « إلى الملتقى القريب . »

ودقت لى عصر ذلك اليوم فراو برجمان تليفونا لتقول لى أنها عادت من سويسرا وانها ستحاول أن ترنى فى المساء .

وقضيت عندى نحو ساعة من الزمن . وقد أحضرت لى معها هدية طريفة . دخانا انجليزيا من نوع فاخر لغليونى ابتاعته من جنيف ، وشيئا من الفاكهة والفطير . وحدثتنى عن رحلتها بالتفصيل وأن صحة الفريدا فى تقدم وأنها ستغادر المستشفى قريبا وهى تقرئنى السلام .

فترة صمت كانت علىّ فترة عذاب أليم .

ثم استأنفت حديثها متلعثمة : « لعلك تذكر هديتك لأ لفريدا يوم الخطبة أعنى صورتها البديعة التى رسمها صديقك شتين ، هى عندى كما تعلم ، وقد

قالت لى الفريدا أن أعطيها لك إذا شئت أن تحتفظ بها للذكرى . . .

« احتفظى بها أنت ! »

ألفريدا تفكر فىّ . تحاول استرضائى . وأهلها يتحببون إلى ، وأنا أصد وأدل . صدق الذى قال : يرضى القتيل وليس يرضى القاتل .

مع الجستابو

الساعة تدق اثنتى عشرة دقة مؤذنة بانقضاء شهر يناير بأحزانه وأتراحه ، ونور مصباح السرير الضئيل يرقص فوق صفحات كتاب « الجوع » للكاتب الشاعر النرويجى الأشهر « كنوت هامزون » ، وأنا مجد فى قراءته ، ألتهم فقراته فقرة فقرة ، وأطوى صفحاته صفحة بعد صفحة ، ناسيا مطالب معدتى ، وكراء الغرفة الذى يستحق فى الصباح ، وكان قد مضى على ساعتان ، ثلاث ساعات وأنا أطالع فى هذا الكتاب العظيم وكأنى عشت أسابيع وشهورا مع هامزون ألزمه لزوم ظله ، أشاطره بأساءه ، أبكى عندما يبكى ، وأضحك لضحكه .

التفاتة صغيرة إلى ساعتى على دقات ساعة الكنيسة ، آه قد انتصف الليل ، فأتطلع فى غرفتى ، فأجد الجو فيها موحشا رهيبا ، صمت عميق ، وظلام حالك يستر ثلاثة أرباعها ، فأنصت لحظة فلا أسمع حركة فى الداخل ولا فى الخارج ، فأعود إلى نفسى فأجدنى لا أزال ممسكا الكتاب بيدى ، وإبهامى عند النقطة التى وقفت عندها ، لا بأس ، فلنعد إلى مسامرة صديقنا « كنوت هامزون » ، وأستأنف المطالعة وبعد ساعتين ، وقد جئت على ما بين دفتى الكتاب ، أنهض من فراشى ، وأجلس إلى المائدة وآخذ ورقة بيضاء فى يدى وأنقل عليها غلاف الكتاب إلى العربية ، ثم أضع القلم والكتاب والورقة جانبا وأقول بصوت مسموع : سنبدأ غداً فى ترجمته . وأعود إلى فراشى . . .

وكانت أعصابى متوترة ، فلم يغف لى طرف قبل انقضاء ساعة من الزمن . ونهضت من السرير فى الصباح حوالى الساعة السادسة على غير عادتى . وكأنى قد أخذت قسطى من النوم والراحة . وشرعت أغسل نفسى وأزينها لأبدأ فى ترجمة الكتاب . وبينا أنا أحلق ذقنى دق الباب علىّ فى هذه الساعة المبكرة . فقلت بالألمانية : « تفضل » .

فدخل علىّ شاب أسمر اللون حليق ، متوسط القامة ، نحيل الجسم ، حسبته لأول وهلة أحد المصريين القادمين الساعة إلى برلين وأن أحدهم قد أعطاه عنوانى . وربما كان فى حاجة لمعاونتى ، فقلت بالعربية مرحبا :

« معذرة . ! دقيقة واحدة وسأنتهى من هذة الذقن الملعونة ! تفضل خذ كرسيا ! » .

فظل الطارق واقفا صامتا فى مكانه عند الباب حتى انتهيت من كلامى . ولم ترتسم على وجهه أية علامة تنم عما فى سريرته ، وأخرج من جيبه شارة من النحاس يحملها رجال البوليس السرى . فلم آبه لها . ولا حركت فى ساكنا . ومن ذا الذى يكون فى مكانى ويخشى هذه الشارة النحاسية أو يخشى صاحبها ؟ لم أنتهك حرمة القانون . ولا زاحمت أحدا فى رزقه فينقم علىّ . وإذا كان لا بد لأحدنا أن يرتعد أمام أخيه ، فليرتعد رجل البوليس أمامى . فأنا أحس فى قرارة نفسى أنى مظلوم مضطهد ، ولا بد أن يحس فى قرارة نفسه أنه ظالمى ، والظالم مهما كان قويا لا بد أن يضطرب إذا واجه ضحيته . ثم ماذا يستطيع أن يصنع بى هذا الرجل وحده أو مجتمعا معه رجال بوليس العالم . لقد أوقفنى طالع النحس موقفا أستطيع أن أتحدى فيه أية قوة غاشمة . فأقصى ما تستطيعه سلطة أن تصنعه بى أن تنفينى من أرضها . وهذا ما كنت أتحرق اليه شوقا . فربما استبدلت جدبا بمرعى ، أو أنها تزج بى فى أعماق السجون فتحمل بذلك عنى أعباء

الحياة التي أنقضت عليها . ولابد أن الله سيحدث بعد ذلك أمرا . على أن السجن ليس عندي بالجديد . فقد زرته شهورا وأعواما . فقلت له وأنا أسيّر الموسى على خدي بيد ثابتة :

« حسبتك مواطنا لي . أما والأمر غير ذلك فلتسمح لي أن أترجم لك ماقلته الآن بالعربية . . . » وأعدت عليه كلامي بالألمانية دون زيادة أو نقصان .

واندفع الرجل بخطوات ثابتة في داخل الغرفة حتى بلغ المائدة وصوب نظره إليّ وأنا واقف أمام المرآة منهمكا في الحلاقة . فرأني لا أعير الموقف كثيرا ولا قليلا من الاهتمام ، أحدد الموسى تارة وأصبّن ذقني مرة أخرى كأني في حضرة صديق قد رفعت الكلفة بيننا فقال لي :

« أسرع ! »

فقلت في تؤدة :

« لك ذلك وإن كنا في الشرق نعتقد ان العجلة من الشيطان »

فقال لي :

« ان الموقف جد لايحتمل المزاح »

وأخذ يفحص بعناية فائقة كل محتويات مكتبي وأمسك علب الدخان الانجليزي الذي أهدتني إياه أمس أول أم الفريدا ! ونظر إلى مخلفات الفطير وأدنى علبة من الدخان إلى أنفه ثم قال وكنت قد انتهيت من الحلاقة :

« يظهر أن لك علاقة بالخارج ، أرني تذكرتك الشخصية »

فأريتها له ورددت عليه :

« كانت لي علاقة بالخارج وانقطعت منذ زمن »

« يظهر انك تحيا هنا حياة رفه ومتعة ؟ »

« أرجو أن يدل مظهري على ذلك »

« ومن أين لك هذا الدخان الفاخر ؟ »

« هدية »

« وكيف تعيش ؟ »

« كما يعيش كل السياسيين المضطهدين فى المنفى »

« وكيف يعيشون ؟ »

« أنت أدرى بذلك منى »

ثم أخذ يفحص كتبى وأوراقى . وأخيرا أمسك كتاب « الجوع » والورقة التى عليها ترجمة الغلاف بالعربية وبنظرة واحدة لهما قال :

« أتنقل هذا الكتاب للغتك ؟ »

« أحاول ذلك »

« أمدين انت ؟ »

« نعم ! »

« كم تبلغ ديونك ، وممن استدنت ؟ »

« لم أحصها بعد ، ودائنى متواضعون لايحبون أن تذكر اسماؤهم »

« هل لديك ناشر ؟ »

« سأحاول أن أجده »

« كم يلزمك من الزمن لأنجاز الترجمة ؟ »

« ثلاثة اشهر »

« هبك سهرت على الترجمة وانتهيت منها ووجدت الناشر وقبل شراءحقوق الطبع والنشر منك فكم تظنه يمنحك من الأجر ؟ »

« عشرة جنيهات »

فضحك رجل البوليس لأول مرة وقال :

« ما أرخص الأدب فى بلادكم » ثم استأذنى فى تفتيش ملابسى فأذنت له طبعا فلم يجد معى شيئا من الفضة ، وفتح محفظة نقودى فلم يجد بها شيئا من ورق البنك نوت ، ولا وجد بها مايريب من ناحية السياسة ، فهز رأسه وقال :

« فى يدك إصلاح حالك وتسديد ديونك »

« أعرف ذلك وأفضل أن أؤجل السداد حتى أجـــد عملا يتفق مع طبيعتى وكفايتى »

عندئذ قال لى :

« تفضل وارتد ملابسك واتبعنى »

« سمعا وطاعة »

وركبنا سيارة عادية كانت فى انتظاره أمام الباب الخارجى . وانطلقت بنا إلى ميدان الكسندر ، ثم عطفت إلى الشمال واندفعت إلى الأمام . فأذا نحن بعد دقائق أمام بيت « لبنشت » ولم نتبادل طول الطريق ولا كلمة ولا نظرة واحدة . ولا أدرى ماذا كان رأيه فىّ ولا شعوره نحوى . اما أنا فقد كان شعورى عدم الاكتراث مستوليا على .

ودار « لبنشت » كانت مقر الحزب الشيوعى الألمانى ، وإحدى مؤسساته التى استولى عليها النازى بمجرد توليهم الحكم . وقد زرتها فى سنتى ١٩٢٢ و١٩٢٣ بيت ضخم ، ابوابه مصفحة ، وبه سلاسل ثقيلة وفيه سراديب وممرات مظلمة ، يحتاج الغريب إذا شاء الانتقال فيه من طابق لطابق أو من جناح لجناح إلى مرشد . وقد اتخذه النازى فى سنى حكمهم الأولى مركزا رئيسيا للجستابو .

صعد إلى الطابق الثالث وسار بى فى دهليز طويل مظلم ثم وقف أمام غرفة عليها رقم ٢٧١ ودق الباب فأذن لنا بالدخول .

دخلنا غرفة صغيرة بها مكتب مكدس عليه بعض الدوسيهات والأوراق

يجلس وراءها رجل طويل القامة أصلع الرأس ، بمجرد أن وقع نظره علينا أومأ إلى مرافقي فاختفى من الغرفة وبقينا وحدنا فقال لي :

« خذ كرسيا ياسيد . . سأوجه إليك بعض الاسئلة ، وعليك أن تجيبني عليها بنعم أو بلا فقط . »

قلت : « لاتنصفني إذا طلبت مني هذا . فنعم أولا ، لاتكفي في كثير من الاحوال للرد على بعض الأسئلة »

« هذا ما أرجوه منك »

وأخذ دوسيها ضخما وفتحه وشرع يسألني :

« هل تعرف رجلا يهوديا اسمه (ر) يشتغل بالجواهر في الاسكندرية »

« نعم ! »

« هل اشتغل معك في أول الحركة التي قمت بها في ذلك الحين . ثم حاربك فيما بعد ؟ »

« نعم ! »

« هل تعرف يهوديا آخر اسمه . . . كان معكم في الحركة ووضعت عنده ١٠٠ جنيه أمانة دون إيصال . ولما أردت استردادها منه اعتذر بأنه تصرف فيها ثم قدم استقالته من الحركة وسافر إلى فلسطين ؟ »

وظل يسألني على هذا النحو عشرين دقيقة . ولاحظت أن المعلومات التي لديه كانت كلها صحيحة ، وأن أسماء جميع اليهود الذين كانوا يعملون معي معروفة جميعا عنده . ثم قال لي :

« أين هؤلاء اليهود منك الآن ؟ وماذا صنعوا لك في نكبتك هذه ؟ »

قلت : « معذرة لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال بلا أو نعم »

فابتسم الرجل لأول مرة وقال :

« لا أريد جوابا على هذا السؤال ولك ان تتبسط فى الأجابة بعد الآن إذا شئت . »

وأخرج من الأوراق صورة فوتغرافية وقدمها إلى وسألنى :

« أتعرف صاحب هذه الصورة ؟ »

فأخذتنى الدهشة عند تدقيق فيها وفغرت فمى من التعجب. فأعاد على السؤال.

قلت : « نعم ! »

فمد يده واستعادها وابتسم ابتسامة الظفر وهو يسألنى « لمن تكون ؟ »

« لى وأنا فى الثالثة أو الرابعة عشرة . وليس لدى منها صورة وكم أتمنى لو حصلت عليها ! ! »

واستأنف أسئلته : « هل كنت عضوا فى البرلمان المصرى ؟ »

« لا ! »

« ولم تنكر ذلك ؟ »

صدقنى ان الفرصة لم تتح لى ذلك . »

ولم تخطىء معلومات الرجل إلا فى هذا السؤال ، ولا أدرى هل أخطأ تقريره فى هذه النقطة أو أنه أراد أن يمتحن صدق إجاباتى ؟ » .

وأقفل الدوسيه وقدم لى سيجارا وأخذ يتبسط معى فى الحديث ، وكان معظمه يدور على مصر وجوها واقتصادياتها وسياسة أحزابها . وفجأة أتى بحركة الذى تذكر شيئا ، وفتح درج مكتبه وأخرج منه كتابا وقال لى :

« أرجو أن تترجم لى هذا الكتاب إلى الألمانية . »

تناولت منه الكتاب ونشرته أمامى على المائدة ، فوجدته مكتوبا باللغة الفارسية فقلت له :

« أرجو معذرة . أنا عاجز عن تقديم هذه الخدمة ، لأن الكتاب مكتوب

بالفارسية وانا أجهلها . »

نهض الرجل واقفا وسار إلى النافذة المقابلة للباب ، واسند ظهره إليه ، ووجه إلى سؤالا عجيبا حيث قال :

« أمصمم أنت على الحياة ؟ » .

فانتفضت ثائرا من سؤاله : « نعم أنا مصمم أيها السيد على الحياة ولو كلفنى ذلك أضعاف أضعافما أكابده من الشقاء . وهب معى أسوأ الفروض ، وأن يدىّ قطّعتا وساقى فصلتا ، وبقيت كتلة لحم ملقاة بجانب حائط ، حيث لا أستطيع الحركة ولا دفع الأذى ، فسيلذ لى أن أعيش لأشاهد موكب الحياة الذى يسير أمام عينى ، على أننى أشك فى أنى سأكتفى بالنظر اليه ، فأن لى رأسا يفكر أو من بكفايته ومقدرته . . أيها السيد إن الحياة عزيزة علىّ وإياك أن تخطىء فهمى فتحسبنى جبانا ، فليس الجبن من شيمتى ، ولكن الحياة عندى تستحق الحياة » وهنا هدأت أعصابى واستردت قواى . .

وبدأ التأثر على وجه الرجل بعض الشىء ، ولكنه أراد أن يغطيه ، فقفز إلى موضوع آخر فقال وهو يبتسم :

« لعلك معجب بدقة أبحاث قلم استعلاماتنا . كل شىء عندنا على مايرام أليس كذلك ؟ » ثم مد يده مسلما وقال : « لقد أزعجناك أرجو معذرة — نحن نعرف كل شىء عنك ونحن واثقون من انقطاعك عن الاشتغال بالسياسة ، إذا وقعت فى بعض المصاعب واحتجت إلى مساعدتى فاقصدنى . وأعدك أنى على استعداد لمساعدتك بكل ما فى من قوة . »

« أشكرك ! »

* * *

وهل ثم مصاعب أكثر من التى أنا واقع فيها الآن . وإذا كنتم تعرفون

كل شيء عنى فلا بد أنكم تعرفون أنى عاطل أبحث عن عمل . آه ! ولكنه البوليس هو البوليس فى كل مكان . وأنا أزهد الناس فى تلقى مساعدة من رجل البوليس ، وأكبر مساعدة يقدمها إلى أن يتركنى وشأنى ، أدبر أمورى وحدى .

فى استديو أوفا

غادرت دار الجستابو فى الساعة التاسعة صباحا ، فقطعت جزءا من الطريق على الأقدام لا أفكر فى شيء ، غير مهتم بما جرى وما يجرى حوالى . لا آبه بالحاضر ولا المستقبل . صرت فى تلك الساعة رجلا قدريا ، ترك الأمور تجرى فى مجاريها . وتلوح منى التفاتة فى الطريق فيقع نظرى على ساعة ميدان ألكسندر ، فأخرج ساعتى لأقارنها على الساعة الكبيرة فتعثر يدى ببقية تذكرة تبيح لى الركوب مرة على خطوط المواصلات فى المدينة ، فأنزل إلى المحطة ، وآخذ قطار المترو الذى يسير تحت الارض إلى ميدان نولندورف . ومن هناك أسير بضع خطوات إلى دارى ـ وهناك أجد نصر بن ابراهيم فى انتظارى وقد أحضر معه فطيراً ، وعلبة شاى وسكرا وشيئا من الزهور .

« مرحبا بك يا سيد نصر ! »

« عليكم السلام ورحمة الله . أنا فى انتظارك منذ الصباح المبكر لنتناول طعام الفطور معا وعندى لك بشرى . » أما هذه الزهور فمن زوجى . لقد حدثتنى صاحبة الدار بقصة البوليس ، حدثنى ماذا جرى ! لقد كنت مصمما على الذهاب إلى المركز الرئيسى للسؤال عنك إذا أنت لم تعد حتى الظهر . »

« بورك فيك . لا شيء . كل شيء على ما يرام »

وقصصت عليه القصة كلها ، وأعددنا طعام الفطور معا ولم يشأ أن يقول لى شيئا عن البشرى التى قال عنها .

وفجأة يقول : « أعد نفسك للعمل من الغد »

ففتحت فمى مدهوشا فوقع غليونى على الأرض ، فانحنيت قليلا لألتقطه بيسراى ، ومددت له يدى اليمنى لأصافحه شاكرا ، فتمنع قائلا :

« أستغفر الله إن تقبيل اليد فى الدين غير جائز ، والفضل فى كل شىء لله وحده . . »

فصعد الدم إلى رأسى وكدت أجن من هذا العامى الأمى الجهول فقد حسبنى أريد أن أقبل يده . لقد هزلت . . . وسرعان ما هبط الدم فى رأسى بالسرعة التى صعد بها . وقلت بصوت مسموع : « لقد ذل من بالت عليه الثعالب » فسألنى مبتسما : « هذا كلام جميل ! لمن ؟ »

قلت : « لرجل لو رأيته لقطعت يده من التقبيل »

قال : أخرج من رأسك فكرة التقبيل فهذه عادة قبيحة »

فقلت وأنا أكظم غيظى من جهله : « ما رأيت أحدا كتبت له الغلبة على مثلك ـ هات ما عندك ! »

قال : « أرسلت شركة أوفا العالمية للفيلم بعثة إلى شمال افريقيا لعمل شريط وقد عادت البعثة منذ أيام . وينقصها بعض مناظر تريد أن تستوفيها هنا فى برلين ويلزمها بعض العرب لأنجاز هذه المناظر وكلفتنى الشركة بإحضارهم ، فأعطيت اسمك مع أسماء إخوان لنا مسلمين . وعليه لا بدأن تكون غدا فى الاستوديو فى الساعة السابعة صباحا : هل تعرف مكانه ، يقع خارج المدينة فى بابلزبرج. تركب القطار الذى يسير فوق الأرض من محطة تسو . الشركة تدفع أجرا طيبا

أربعين ماركا عن اليوم ، أى ما يقرب من جنيهين . ومدة العمل لا تزيد على بضع دقائق . »

« جميل ! أشكرك وما نوع العمل »

« تمثيل »

« لكنى لم أمثل فى حياتى »

فقهقه ضاحكا ـ « وهل تظن الممثلين ولدوا ممثلين . هذه صناعة عجز يستطيع كل إنسان أن يحترفها ، ومع ذلك فسيعلمونك كل ما ينقصك »

« أتعنى ممثلا أو كمبارس ؟ »

وهل ثمّ فرق بين الاثنين ، كلاهما يمثل . والفرق بينهما أن الأخير أرخص من الأول ، ونحن نهتمى طبعا للكمبرس »

« ليتك تمر علىّ فى الصباح فأنا أجهل الطريق . و أجهل كل مايختص بالفلم » قلت ذلك بعد قليل من التفكير لأن السفر إلى الضاحية كان يعز على لنفاد نقودى ، وعز على أن أطلب منه قرضا .

فقال : « حسناً ولو أن فى ذلك مشقة على . سأمر عليك فى الساعة السادسة صباحا . كن مستعداً لأنه يلزمنا أن نكون أمام الاستوديو فى تمام الساعة السابعة على الأكثر أول فبراير . »

وكان الجو بارداً رطباً وقد خيم الضباب فى كل مكان . ووصلنا الاستديو قبل الموعد المضروب ببضع دقائق . وهناك وجدت أمام الباب الخارجى نحو عشرين رجلا وامرأة واحدة من عرب شمال افريقيا . كلهم إلا اثنان أو ثلاثة طوال القامة ، أشداء ، سود الوجوه ، جعد الشعر ، يتعذر علىّ فهم لغتهم وإن كانوا يتكلمون العربية ـ أما السيدة فكانت على جانب عظيم من الملاحة لأنها كانت خليطا ، أبوها مراكشى وأمها أوربية . وقصة هؤلاء العرب كقصة

نصر بن ابراهيم . كانوا جنودا فى الجيش الفرنسى فى الحرب العظمى ولما أعلن خليفة المسلمين فى تركيا الجهاد ، فر بعضهم من الجيش الفرنسى إلى الجيش الألمانى ، وأسر البعض الآخر ومنذ ذلك الحين اتخذوا ألمانيا وطنا ثانيا لهم . وأغلبهم أميون ، ولغتهم الألمانية رغم السنين الطوال التى عاشوها فى ألمانيا عامية ركيكة . وهم يعيشون من تعاطى بعض الحرف الشرقية كبيع الفول السودانى ، واللعب بالسيف وأكل النار على المسارح الصيفية ، وكان بينهم مصرى واحد من طبقتهم.

سلمنا عليهم . وقدمّنى اليهم نصر بن ابراهيم فلفت نظرهم بياض بشرتى ، واختلاف شعر رأسى ولغتى وكل شىء فىّ حتى حركاتى وخجلى .

وفضلت أن أتحدث معهم بالألمانية حتى أستطيع فهمهم . ولما علموا أنى أريد العمل معهم اكفهرت وجوههم وحسبونى منافسا خطـــرا عليهم . فأخذوا يتهامسون مع بعضهم البعض . ورمونى بالنظر الشزر . ولم يستطع أحدهم أن يملك نفسه فقال لى فى حدة :

« أنت رجل متعلم فلماذا لا تبحث لك عن عمل فى دائرة عملك ؟ » قلت « حب الدرس هو الذى جاء بى إلى هنا » .

قال « ألا تعلم أن حب الدرس ربما طوح برزق أحدنا . أنتم منافقون أيها المتعلمون . تسمون الأشياء بغير أسمائها . وتضعون أنوفكم فى كل شىء فتفسدونه لمصلحتكم باسم حب الدرس »

قلت : « أعدك أن لا أعتدى على أحد ، وأن أتقدم آخركم »

فلوى وجهه عنى وهو يتوعدنى فى صوت خافت .

ودق جرس عند الباب ، ففتح الباب وتقدمنا فى صف واحد ، وقفت فى

آخـــره ، وقدموا نصرا عليهم ، ولما جاء الدور عليّ نظر إلى البواب وقال « لا نريد ألمانا » .

قلت : « لست بألماني ـ أنا مصري » .

فحدق فى مرة أخرى . ولما كانت الإدارة لاتزال فى حاجة إلى رجال قال متساهلا : « ادخل » .

وسرت فى ركاب نصر بن ابراهيم ، واخترقنا طريقا طويلا ممهدا ، على اليمين منه والشمال فضاء به بعض أشجار ، تشقه من جهة اليمين ترعة ـ وهنا وهناك يرى الزائر بعض مبان قائمة . سرنا فى هذا الطريق حتى بلغنا صالة فسيحة جداً كانت غاصة بالناس من جميع الجنسيات وكانت مضاءة فى الصباح ولكن نورها الكهربائى لا تكاد أشعته تنفذ إليها من البخار والانفاس المتصاعدة . أخذنا مجلسنا إلى إحدى الموائد ، وطلب لنا نصر قهوة وخبزا وزبدا ، وبعد نصف ساعة جاء أحد موظفى الاستديو وقيد أسماءنا وفحصنى بنظرة المدقق ، وسألنى عن جنسيتى ومهنتى وهز رأسه ثم أعطانى وحدى ورقة وقال لى اصعد فى الطابق الأول إلى رجل المكياج ، وهناك جلست على كرسى أشبه بكرسى الحلاقين وصبغ لى رجل المكياج وجهى بصباغ أسمر ، وشوه فى خلقتى كما شاء . وأنا صامت تحت يده . ثم أخذونا إلى غرفة الملابس فخلعنا ملابسنا ، وألبسونا ملابس الجنود ، وعدنا بها إلى الصالة ، وبقينا كذلك بدون عمل حتى المساء كلما مللنا الجلوس درنا دورة فى الخلاء . ودق الجرس فصعـــدنا إلى الطابق الأعلى وخلعنا ملابسنا العسكرية وارتدينا ملابسنا الخاصة وحاولت أن أزيل أثر الصباغ عن وجهى بالماء والصابون فعز على . وقال لى أحدهم استعن بكذا وكذا فى الدار وأسرع فنحن نريد الانصراف . ثم ذهبنا إلى الخزانة فأعطوا كل واحد منا أربعين ماركا أو مايزيد عن جنيهين . فدهشت لذلك لأنا لم نصنع

شيئا فسألت نصرا أن يوضح لى ذلك فضحك وقال :

« لم يستطيعوا أن يأخذوا لنا صورة لأن الشمس لم تطلع اليوم ، وقد يمتد ذلك شهرا ، هذا شيء يتعلق بحظنا ، وإذا غابت الشمس فهذا ليس ذنبنا فنحن قد ضيعنا وقتنا من أجلهم » .

وفى اليوم التالى قصدت إلى الاستديو وحدى ، وعملت نفس التواليت الذى عملته أمس ، وأخذت مجلسى مع نصر بن ابراهيم فى الصالة ، وفى الظهر مر بائع الصحف فاشتريت نسخة من جريدة « ب . ز . » ، وأخذت أطالع فيها وغرقت فى القراءة فلم ألتفت لما يدور حوالى من الهمس والغمز ولم أنتبه إلا ويد تضرب الصحيفة المنشورة أمامى فتمزقها من الوسط فالتفت فإذا بالحربى الذى تحدانى أمس يتحدانى اليوم بلهجة ساخرة :

« ماهى الأخبار ايها المعلم ؟ »

فحدثته عنها كأن لم يحدث شيء . فصر على أسنانه ، وفى المساء صرفوا لى جنيهين ، وظللنا كذلك ١٤ يوما نذهب فى الصباح للاستديو نلبس ثياب الجند ، وأنفرد أنا بالتواليت لتغيير بشرة وجهى التى كانت تمتاز عن الآخرين ببياضها ثم نقضى اليوم جلوسا فى الصالة أو فى التريض فى الفناء ونقبض أجر اليوم وننصرف إلى دورنا فرحين .

وابتدأ جيبى يفعم بالمال على غير عادة ، فشرعت أصلح من حالى فى حذر واقتصاد ، فاشتريت بعض الملابس الضرورية ، وبعض الكتب الحديثة ، وزرت بعض الملاهى .

وفى اليوم الخامس عشر طلعت الشمس بعد غياب أسبوعين . وقيل لنا استعدوا اليوم للعمل . فاسودت وجوه زملائى ، وكنت قد تعودت الكسل كذلك ، والربح دون عناء ، فأحسست شيئا من المرارة فى نفسى .

ونظمونا فى صف ، وتقدمنا ضابط راكب ، وقيل لنا أن نتبعه القبض على أحد قطاع الطرق الخطرين . وأخذت مكانى فى وسط زملائى . وصفرت الصفارة ، وانطلق الضابط ، وانطلقنا خلفه حتى بلغنا الغار الذى يقيم فيه قاطع الطريق . وناداه الضابط أن يخرج من مكانه باسم القانون . وأبدى المخرج ملحوظاته على الضابط ، وأمرنا أن نعيد الكرة . ومثلنا المنظر مرة أخرى . وأبدى المخرج ملحوظاته على التمثيل ، وطلب إعادته . وأعدناه المرة الثالثة ، وبينا نحن نسير خلف الضابط أشار لى المخرج من بين الجنود فهرولت إليه . فأمسكنى من كتفى: « أنت لاتصلح أن تكون جنديا ، فمشيتك ليست مشية جندى »

فتولانى الفزع والجزع لملحوظاته ، ولكنى سرعان ماضبطت نفسى وقلت له فى شكل الواثق من نفسه : « عندك حق . لقد كانت خطوتى ضيقة وبطيئة . ولم يكن عليها مسحة الجندية . جربنى مرة أخرى وأنا أعدك أن أسرع ، أن أجرى . . . »

فقاطعنى : « الجنود لايجرون ، أنت لاتصلح أن تكون جنديا . سأعطيك عملا آخر . اذهب إلى جهة الترعة . فهناك سفينة للتفريغ والشحن معا . جرب العمل فيها » .

فابتسمت ابتسامة مصطنعة : « أشكرك ، هـــذا عمل لابأس به أيضا ، وسأنجح فيه بدون شك » .

وأعادونى إلى محلة الميكياج فصنع منى الرجل حمالا . وانطلقت إلى ناحية السفينة ، فوجدت صناديق معدة لنقلها إليها ، فهلعت لرؤيتها وخشيت أن أعجز عن حملها ، ولكنها لحسن الحظ كانت فارغة ، فحملت صندوقا على ظهرى ، وتظاهرت كالآخرين بأنه ثقيل ، وأخذت طريق فى صف الحمالين ، وكان زملائى من العرب ينشدون بلغتهم نشيد الحمالين ، ليخففوا عنهم عبء العمل . وأنا

لا أدرى ما أقول ، فسرت صامتا وأنزلنا حملنا فى جوف السفينة . وحملنا بعض جوالات منها ، وأخذنا طريقنا إلى الرصيف ، والجمع يغنى وينشد فى الغدو والرواح . وهنا أشار إلى المخرج فذهبت إليه واحمل على ظهرى

فقال لى : « ألق به أرضا . مارأيت فى حياتى حمالا يلبس منظارا ويسير صامتا يتبختر فى مشيته تبختر المعتز بنفسه مثلك . لا ياسيدى أنت لاتصلح أن تكون حمالا . »

« معذرة أيها السيد ، أنا أصلح لكل شىء ، لأنى مستعد للأصغاء لكل ملاحظة توجهها إلى ، قليل من الصبر علىّ أبز كل هؤلاء . سأخلع نظارتى ، سأكسرها ، جربنى مرة أخرى . . . »

« لا أجربك . ليس لدينا وقت لعمل تجارب معك . ولامال لدينا لتدريب أمثالك . أنت تحتاج للتدريب إلى قرن من الزمن وكنز من المال ، وأنا أشك بعد ذلك فى نجاحك . » ثم فكر الرجل قليلا وقد رأى آية الجد وحب العمل مرسومة على وجهى وقال : « حسنا ، سأعطيك آخر فرصة . هل تستطيع ان تبيع قللا وأزيارا ؟ »

« آهها ! هذا هو ! سترى العجب منى أيها السيد . هذه صناعتى فى بلدى ورثتها أبا عن جد ، قلل الفخار ! هاها ! من ذا الذى كان يظن انى سأعالج صناعتى الأصلية فى برلين . » وأردت أن أثبت ذلك فى رأس الرجل فاندفعت أقول : « نحن فى مصر لا نزال نعيش عيشة آبائنا القدماء . فالحداد يورث ابنه الحدادة والنجار يعلم ابنه النجارة . قد يبدو لكم هذا فى بلاد الغرب عجيبا ، ولكن هذه هى الحقيقة ، فأنا بائع قلل وأخى بائع قلل لأن أبى وأمى كانا بائعى قلل ورثا ذلك عن آبائهما وجدودهما . هاها ! » وانتابتنى نوبة هستيرية وأخذت أضحك ، وتخيلت الكلام الذى أقوله صحيحا . وتحدثت لنفسى فى سرى .

« ربما كنت كذلك . وربما كان أبى كذلك ، وأن خبلى هو الذى أنسانى حرفتى » وانصرفت عن الرجل بالحديث مع نفسى فقطع على هذه التفكيرات الجنونية وقال :

« نعم ! أعنى قلل الفخار ، اذهب واصنع المكياج لذلك . وهناك خلف الصالة تجد عششا بها من ثمار آبائك وأجدادك . من يدرى ؟ . ربما وجدت فيها شيئا من صنع يدك فى مصر انتقل معك إلى برلين . وضحك وضحكت مجاملة له . وقلبى يكاد يتقطع من الحزن والأسى .

وفى هذه المرة ألبسونى لباس بدوى فعصبوا رأسى بالعقال ، وطرحوا على منكبى عباءة بيضاء ومدوا لى شاربا رفيعا ولحية خفيفة . وألبسونى نعلا دون جورب فى هذا البرد القارس . وسرت أتعثر فى ثيابى العربية خائفا أن يرانى المخرج ، حتى بلغت العشة فوجدتها لا تفترق عن عشش الفقراء عندنا إلا بنظافتها ، وقد علقت قلل الفخار من مختلف الأنواع عند مدخلها ورصت أنواع من الأزيار والأباريق بجانب الحيطان . ولم أكد أخطو داخلها حتى ظهر العرب ليشتروا ويساوموا ووراءهم المخرج . فأخذ هذا يمسك ابريقا ، وذلك يزن قلة فى يده ، وآخر ينقر بعقلة أصبعه على الأبريق ليتبين نوعه وجودته . والجميع يتكلمون معاً فى صوت عال يصيحون ويعجون واندفع فريق منهم إلى داخل العشة يقلبون فى البضائع وينقلونها من مكانها ويكومونها هنا وهناك ، هذا يجذبنى إليه ، وذلك يشير إلى ، فأرتج على ، فقلت لهم : على مهلكم ، تكلموا واحدا واحدا ، فلم يفهموا لغتى ، وثاروا لبلادتى ، وسبوا ولعنوا . وأخذ قلبى يدق دقات سريعة مسموعة خوفا من المخرج وسمرت عيناى عليه . فقفز الرجل إلى وصرف المشترين ، وأرسلنى بأشارة منه لخلع الملابس العربية وارتداء ملابسى ، ووقف ينتظرنى والشرر يتطاير من عينيه . ولما عدت أمسكنى بجماع

يده من ياقة سترتى من الخلف ودفعنى أمامه إلى الخزانة ، وأمر لى بصرف أجر اليوم ، وهو ممسك بى كأنى لص خطر فار من وجه العدالة قد وقع فى يد شرطى بعد طول البحث عنه . ودفعنى أمامه مرة أخرى إلى البواب وقال له « لا تدعه يخطو عتبة الاستديو بعد اليوم » ثم قال كلمة الوداع : « إياك وان تقترب من هذا المكان ! » وفتح الباب ودفع بى إلى الخارج على مرأى من بعض زملائى وقد غلب عليهم الضحك والمرح ، فأخذ بعضهم يدور حول نفسه على ساق واحدة ، وأخذ البعض يطوح ذراعيه فى الفضاء ، ودمعت عيون البعض من كثرة الضحك ، فمسحوها بأكمامهم ، فكانت فضيحة ليس بعدها فضيحة . . .

فى مقهى تسوئ

أحقاً عباد الله أنى لا أصلح لشىء ؟ ! أللناجحين فى الحياة مخالب ولى أظافر ؟ ولهم أنياب ولى أسنان ؟ أم أنهم يفكرون برءوسهم وأفكر وحدى بقدمى ؟! الله وحده يعلم ! والله لو انا وضعنا كفايتنا فى كفتى ميزان لشالت كفتهم ورجحت كفتى . ولو قيست قوتهم وقوتى لكنت الأقوى . إن فى الأمر شيئا . هو الحظ الأعمى . . . الحظ ايها الأخرق ؟ ! ومتى كنت تؤمن بالحظ ؟ ! لقد صحت منى النية وصدق العزم ، وعالجت ما أعرف ومالا أعرف ، وكتب علىّ الفشل فى كل مرة ، وعدت من تجاربى بهزائم تحطم أمتن الأعصاب ، ومهازل يندى لها الجبين . ولو أن أحد هؤلاء الموفقين فى الحياة خاض المعركة التى أخوضها فى الحياة لباع علمه وسلم واستخذى . وأنا فى كل يوم ألطم على وجهى وقفاى وأنا صابر على الأذى ، لاذنب لى فى كل ذلك . فهل لك أن تمارى بعد ذلك فى أنه هو الحظ الأعمى الذى أنزلنى هذه المنزلة السفلى ... أيها الجبان فى استطاعتك أن ترد اللطمة لأصحابها لطمات . وأن تحيا حياة أسعد

من حياتهم إذا أنت سلكت طريقهم . مرح ، ونافق ، وتقلب مع الهوى . . . لا ، لن يكون ذلك ولو افترشت أرض الغابة . وعشت على الحشائش . وألصقت أنفي بالتراب . . . إلى الدار ... بهذا الحديث وأمثاله كنت أحدث نفسي وتحدثني طول الطريق .

وصلت الدار محطما منهوكا ، كما لو كنت خارجا من معركة حمى وطيسها اياما وليالى ، ممزق الأعصاب ، مجروحا ، تعبا . فارتميت على الفراش نصف ساعة بملابسى . ثم نهضت واستحممت . وعند عودتى وجدت فى الصالة كتاباً لى من فراو برجان أم الفريدا تدعونى فيه لتناول الشاى معها فى تمام الساعة الخامسة فى مقهى تسونز بشارع تونسن لأنها ستكون فى هذا الموعد على مقربة من ذلك المكان . وأنه قد مضى زمن طويل لم ترنى فيه وتريد أن تطمئن علىّ ، وان برفقتها شاعرا يريد أن يتعرف بى ؟ . . .

آه ، هذا المقهى حدثنى عنه الفتى الرسام شولتسا الذى التقينا به عند متنزه فكتوريا لويزا ، وقد نسيت الفتى ، ونسيت المقهى . سألبى دعوتها دون شك . وسأكرم وفادتها هى وصديقها الشاعر هذه المرة فلدى اليوم من المال مالم يتوفر لى فيما سلف . . .

وفجأة أبصر الفريدا أمامى واستنشق أريجها ، فأراها كما تركتها آخر يوم افترقنا فيه تبكى وتتوسل . وتأخذ صورتها فى الاضمحلال شيئا فشيئا حتى تمحى من أمام باصرتى ، فيجن جنونى ، وأحس النار تشتعل فى ثيابى ، فأبحث عنها فى الغرفة ، وأحرك أثاثها . وأعود أقف فى مكانى وأنا أكاد أغرق فى عرقى ، فأرى صورتها تبدو وتختفى كما يطفو الغريق فوق سطح الماء ويغوص فى عبابه وتبليلت أفكارى وظلت فترة من الزمن تدور فى نفس الدائرة فكنت أتخيل لألفريدا صورا مختلفة لا تكاد تبتعد حتى تعود فتقترب . لا بد وأن تكون

قريبة مني ويمنعها الحياء من الظهور ، فأرهفت أذني وأصغيت لكل حركة . وكلما سمعت وقع عربة في الطريق أو دق التليفون أو سار أحد في الصالة يهتز جسمي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ، فألتفت إلى الباب كأني أتوقع قدوم ألفريدا أو رسول منها . إنها لا تطيق صبرا على الفرقة ستعفو عني وتغفر لي تعنتي . وأخذ النصب مني مأخذه فرأيت كرة ضخمة تلف بسرعة أمام عيني فأخذت مجلسي على كرسي هناك وانكمشت في نفسي وكلما انكمشت في نفسي زادت الكرة في دورتها . هذه حال لا أطيقها . وإذا أنا كنت حقا أحبها ، وأنا بلا شك أحبها فلم أذلها كل هذا الأذلال وأنتظر منها أن تأتي إلي ؟ أنا الذي أذهب اليها ، وقفزت من كرسي ، وأخذت قبعتي وجريت نحو الباب . ثم لطمت جبيني بكفي إلى أين ؟ إلى سويسرا ! ومن ذا الذي يصرح لي بالسفر وأنا مسحوب الجنسية شريد طريد .

وتنبهت حواسي شيئا فشيئا من هذا الكابوس الذي جثم على صدري طول هذه المدة فقلت : « ماذا تريد مني عجوز السوء هذه . أنها تنكأ جرح قلبي كلما التأم ، لتكن من نصيب الشيطان ؟ ! » .

وهدأت أعصابي بعد مرور بضع ساعات وأخذت أعد نفسي لمقابلة أم ألفريدا وصديقها ، وفضلت أن أسبقهما إلى مقهى تسونز فكنت أمام بابه في الساعة الخامسة إلا ربع وفي يدي صحيفة العصر . تفقدت المكان فأعجبني ، كان آية في النظافة والترتيب . يجد الداخل على يمينه مائدة طويلة ممدودة وراءها رجال ونساء يبيعون بنا مطحونا ، وسكراً ، وفطيرا ، وشكولاته وفي آخر المائدة خزانة لدفع ثمن المشتروات . وأمام الخزانة في الجهة المقابلة خزانة أخرى يقصدها رواد المقهى قبل الجلوس لدفع ثمن مشروباتهم مقدما وتسلم بونات بموجبها فقط تقدم الخادمات الطلبات للزبائن . فقسحة فيها موائد داخل

فسحة ، حديقة تفتح أبوابها فى الصيف وتغلقها فى الشتاء . ولا يباح التدخين فى هذا الطابق الأرضى . والمقهى طابق علوى عبارة عن ردهـــة فسيحة خصصت للمدخنين .

ويمتاز مقهى تسونز برخصه ، فضجان القهوة فيه بقرش واحد ، وهذا مالا يوجد فى كل برلين ، وبعدم دفع بقشيشات للخدم ، مع أن البقشيش مرخص به من الحكومة وقدره ١٠ فى المائه تضاف فوق كل حساب ينفقه الإنسان فى مطعم أو مقهى ، وبأن الخدم جميعا من النساء ، وبأن رواده من الجنسين يكادون يكونون عائلة واحدة ! وهم يتألفون من بؤساء الفنانين . فبينهم الشاعر والرسام والمثالة والممثلة الخ . الخ . . .

ولتسونز هذا فروع وشعب أخرى فى أنحاء برلين ولكن أشهرها وأوجهها محله فى شارع تونتسن الذى نحن بصدده . لم أكد أتعرف ميزه الجليلة هذه حتى اتخذته لى مركزا مختارا منذ ذلك اليوم .

ولم يمض كثير من الوقت حتى جاءت فراو برجمان ومعها الشاعر صديقها رجل يناهز السبعين من العمر ؟ قصير القامة ، ضعيف البصر ، تلوح عليه آثار النعمة . قدمته إلىّ فراو برجمان قالت : « هرشفرين شاعر فحل ، صديق العائلة منذ زمن بعيد ، وكان بعيدا عن برلين طول هذه المدة . سمع عنك منا ، ويريد أن يتعرف بك . »

« مرحبا به يا أماه ، ومرحبا بالسيد شفرين ! لا تنسيا أنى شرقى ؟ وقد أسأتما إلى باختيار هذا المقهى الذى لا أستطيع أن أقدم لكما فيه شيئا فأنتما ضيفى الليلة على العشاء » .

وتشبثتُ بالدعوة وتشبثوا بالرفض فى أدب . وأخيرا أذعنوا . ولقد دفعنى إلى الإصرار عدة دواع . أن أظهر لصديق العائلة هذا أن صهرهم رجل له مكانته

وأنه يعرف « الأيتكيت » . ولأرى فراو برجمان أنى لا زلت أكن لها الحب والاحترام فى نفسى ، وربما كان حب الأنفاق الذى تعودته يداى وعلى الأخص بعد طول الحرمان وبعد أن أفهم جيبي بالمال هو الذى جعلنى أدعو أول من القاه من معارفى .

وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث فحدثنى الهر شفرين عن نفسه قال إنه كان صاحب مصنع كبير للسجاير . وكان معدودا بين مليونيرى برلين . وإنه قد فقد ثروته حتى آخر مارك بسبب حكومة النازى وقوانينها التى سنتها ضد اليهود . وإنه يعيش الآن عند إحدى المحسنات . ولما كان لا يريد أن يقضى البقية الباقية من حياته عالة على محسن وبدون عمل ولا كسب فكر فى الرحيل عن المانيا إلى مصر ليبدا هناك عملا من جديد . وطلب إلى أن أحدثه عن الحالة فى مصر .

وكلمته طويلا عن مصر وعما يمكن مزاولته فيها من الصناعات ، وأبديت شكى فى مقدرته على الحصول على تأشيرة للدخول إلى مصر ،

قال : « وإذا رجتك فراو برجمان من أجلى فهل لاتتوسط لى ؟ »

فضحكت ضحكة القهر : « لعلك تجهل حقيقة حالى ؟ أنا يا سيدى . . »

فقاطعنى : « أنا أعرف قصتك من الألف إلى الياء . ولكنك إذا عجزت عن عمل شىء لنفسك فلن تعجز عن عمل شىء لغيرك . فلك مكانتك فى بلدك ، وأصدقاؤك وأهلك لن يقصروا فى خدمتك متى طلبت إليهم ذلك . »

فعجبت لشدة تفاؤل هذه الجماعة بالحياة ، وأدبهم وصبرهم ، واعتذرت بدقة مركزى

فقال : « لاتقطع بالرفض ، جرب ، فلن تخسر شيئا . »

ولا أدرى كيف انتقل بنا الحديث إلى الأدب والأدباء فقلت لفراو برجمان : « لقد قدمت لى بالأمس هر شفرين كشاعر من كبار الشعراء وأبى أن يقدم نفسه

الا كرجل من أرباب الصناعات فهل لى أن أستخلص من قوليكما أن هرشفرين هاو مجيد ، وهل له أن يسمعنا شيئا مما يحضره الساعة ؟ »

قالت فراوا برجان : « إن هرشفرين هاو مجيد كما قلت ، وفى استطاعته أن يكون محترفا من البارزين . ولكنه يأبى أن يعيش من الشعر إكراما للشعر هذا رأيه - ولا أظنه يمانع فى إنشادنا شيئا مما نظمه فى السحاب فأنا شديد الأعجاب به ، وبهذه المناسبة فمعظم شعر هرشفرين فى الطبيعة . »

ولبى الرجل رجاءنا وأنشدنا شيئا من شعره ، أما العبارة فكانت رصينة وأما المعنى على إبداعه فلم يكن غريبا عنى ، وسألنى رأيى فصارحته القول فابتسم وقال : « أعمل فكرك قليلا لعلك تذكر أين قرأت أو من سمعت هذه المعانى . »

ولم تخنى ذاكرتى طويلا قلت : « ألم يقل هرمن هسا شيئا يشبه ذلك ؟ »

قال : « كل ما أنشدته الساعة هو لهرمن هسا قاله نثرا فنظمته . وأنا أحد المعجبين بالرجل غير أنى ليدهشنى وفرة اطلاعك فى لغتنا وأنت أجنبى . وأؤكد لك أن . . . . . »

ودقت الساعة الثامنة ، فانتقلنا إلى مطعم كمبنسكى فى كورفر ستندام وهو من أفخر مطاعم المدينة وهناك أخذنا مجلسنا ، وأكلنا ، وشربنا مالذ لنا وطاب . قضينا هناك ساعتين كاملتين . نفضت عنى فيهما غبار الماضى ، وعشت فيهما فى عالم جديد مملوء بالفن والأدب والمرح والترف . وقبل أن يستأذن العجوزان فى الانصراف إلى داريهما قالت فراو برجان ولسانها يتلعثم :

« هل تسمح لى أن أسألك سؤالا لك أن تجيب عليه إذا شئت ، ولك أن لاتجيب عليه . »

« لك ان تسألى ماتشائين يا أماه ، فانى لا أكتم عنك سرا : »

وكانت كلمة - يا أماه - تدخل الفرح على قلبها بل تسكرها . فقالت مزهوة:

« أسبوعين لم أرك ، وقد ألح بى الشوق إليك فيهما . وترددت عدة مرات على مسكنك ، ولكنى لم أتلق من صاحبة الدار عنك جوابا شافيا . فأين كنت ؟ »

فضحكت من كل قلبى . وقلت لها : « وقع على الاختيار فى تلك المدة لأطلع نجما فى سماء برلين . . . »

فملقت فى مشدوهة . فقصصت عليها القصة ولم أنقص فيها ولا زدت عليها حرفا . فضحكت ضحكة المغلوب وقالت وهى تصعد نظرها إلى سقف المكان :

« إنك لا تصلح يا بنى لشىء غير الكتابة . لقد أضاعوك . ولكن صبرا فقد يأتى دورك . وهو آت . »

وضحك هرشفرين بصوت مسموع وقال وهو يمسح عينيه : « تعجبنى بساطتك وصراحتك . لقد أحببتك . أعطنى عنوانك فأنى أحب أن أزورك من وقت لآخر ، هذا طبعا إذا لم يكن لديك مايمنع . »

وأوصلتهما إلى محطة أولاند . وأخذت طريقى مشيا على الأقدام صاعدا فى اتجاه كنيسة جدشنس . وكان الجو باردا ، إلا أنه كان منعشا . وكان الشارع مزدحما بالرائحين والغادين أفرادا وجماعات ، وأنوار المقاهى والكبريهات وإعلانات المحلات التجارية ذات الألوان المختلفة تضىء ظلام الليل ، فتدخل الحبور على قلوب الجماهير السائرة . سأسير إلى نولندورف على الأقدام ، وهناك سأصير على مقربة من دارى . فالجو جميل . ونزهة كهذه قد تفيدنى . ومن يدرى فربما سرت إلى أبعد من نولندرف ، وربما سرت إلى ميدان بوتسدام . حبا فى التغيير . هذه ليلة لا يصح فيها النوم . سنرى .

وألقيت نظرة على أحد المقاهى فى طريقى فرأيته غاصا بالزوار وجوقة الموسيقى فى أحد أطرافه تشنف آذان السامعين . ودخلت محلة للبيرة تتسع لآلاف

الزوار فلم أر فيها مكانا لقدم ، والناس يعجون بالغناء لا يكاد يتميز صوت رجال الموسيقى من أصواتهم لشدة العجيج والضجيج . الله أكبر ! هذه ليلة فريدة من ليالى برلين الخالدة . ليست وحدى الفرح . برلين كلها تشاطرنى أفراحى

واستأنفت السير حتى نهاية شارع كورفرستندام ، وانعطفت مع شارع تونتسن ولم أسر إلا قليلا حتى رأيتنى أمام مقهى تسونز مرة أخرى . أدخله ؟ لا أدخله ؟ وأخيرا قررت أن ألقى عليه كذلك نظرة فى هذه الساعة . فطفت بصالاته فرأيت وجوها غير الوجوه التى رأيتها فيه عصر اليوم : هؤلاء أكبر سنا وأقل أناقة من أولاء . ولم تكن الصالات كذلك ممتلئة بالزوار امتلاءها فى النهار : فصعدت إلى الطابق الأعلى ، فوجدته على العكس من الطابق الأدنى مزدحما بالجلوس ، وعلاقات المعاطف تكاد تسجد من عبء ما حملته ، وقد انعقدت فى سماء الصالة سحابات من الدخان المتصاعد من أفواه المدخنين . تصفحت الوجوه فوقع نظرى على الفتى شولتسا الرسام جالسا فى حلقة كبيرة من الفتيان والفتيات فحييته فنهض واقفا ، واستقبلنى أحسن استقبال وقدمنى لرفاقه بهذه الجملة القصيرة : « السيد صحفى مصرى . » فتطلعت إلىّ العيون وأفسح لى بعضهم مكانا ، وسألنى شولتسا أن أجلس معهم ، فقبلت عرضه عن طيب خاطر .

« لعلك قادم الساعة من الدار ؟ »

« من كمبنسكى . وكنت أفكر فى الذهاب إلى الدار »

فابتسم الفتيان ابتسامة رقيقة ، وتغامزت الفتيات فيما بينهن .

شولتسا ضاحكا : « هل كنت تبحث عن أحد هناك ؟ »

يبتسمون ويبتسمن .

فى عدم اكتراث : « لا ، ولكنى كنت دعوت بعض الأصدقاء إلى تناول العشاء هناك . »

شولتسا : «والآن أظن علينا الدور لندعوك هنا ؟ »

« لا ، أشكرك ! لم يأت الدور عليك بعد . . ولايزال الدور على الليلة . أنتم جميعا ضيوفى . اطلبوا ما تشاءون . »

« شكرا لك ، أنت ضيفنا . ونحن هنا منذ أكثر من ساعة وقد شربنا وأكلنا . »

« جرت العادة عندنا فى المقاهى البلدية فى مصر أن يمر الخادم على الزبائن كل ساعة تقريبا ، ويسألهم عن طلباتهم ، فيأمرون بمشروب جديد . هذه عادة من عاداتنا الطيبة . ليتكم تعممونها عندكم ! »

« لو عممت عاداتكم الطيبة لحرم أمثالنا من الجلوس بعض ساعة فى مقهى كهذا . » ومالت إحدى الفتيات على أذن زميلتها وأسرت لها شيئا ، ثم تضاحكن

فقال شولتسا لأحداهما : « أنا أعرف سبب ضحككم ولكنى لن أقوله للسيد المصرى . خذى منه نقودا ، وأحضرى لنا بونات من الخزانة تحت بعددنا للقهوة وشيئا من الفطير . »

فصدعت بالأمر ووجنتاها تتقدان من الخجل .

وبقينا نتسامر حتى انتصف الليل وهو موعد إغلاق المقهى . ووجهت إلى اسئلة واستجوبات من زملائى الجدد ، ووجهت مثلها إليهم . فعرف كل واحد منا شيئا عن الآخر فى هذه المدة القصيرة : ورفعت الكلفة بيننا كأننا أصدقاء منذ سنين . ولا عجب فهذه ميزة الفنانين البوهيميين أمثال شولتسا وأصدقائه . ولم يجدوا غضاضة فى مصارحتى لأول مرة أجلس فيها معهم أنهم كثيراً مايقترضون من بعضهم ثمن بون القهوة على ألا يرد . وأن من يوفق منهم للحصول على مبلغ من المال من بيع مقال أو صورة الخ . يدعو زملاءه إلى حفلة صغيرة يحيونها فى دار أحدهم . بل ذهبوا فى صراحتهم معى إلى أبعد من ذلك ، قالوا انه إذا تعذر الحصول على ثمن بون للقهوة (وهو ما يساوى قرشا) جلس الواحد منهم

فى قسم الخادم فلانه فأنها تحب الفنانين وتبرهم ، ومن يدرى لعلها فنانة كذلك ، أو لعل لها صديقا فنانا ، فتأتى له بفنجان فارغ لأحد الزبائن وتضعه أمامه حتى لا يستلفت وجوده دون طلب نظر مدير المحل .

اعجبتنى هذه الحياة البوهيمية .

فى دار شفرين

زارنى هر شفرين فى دارى بعد يومين من مقابلته الأولى لى . ولم يكن لدى الرجل عمل كما لم يكن لدى عمل ، فبقينا فترة طويلة من الزمن نتجاذب أطراف الحديث . وسألنى إذا كانت لى رغبة فى عمل دورة معه فى هذا المتنزه او ذاك ، فلم أمانع . وتكررت زياراته ومواعيده ، فى الدار ، وفى المتنزهات العامة ، وفى مقهى تسونز . وارتفعت الكلفة بيننا إلى حد كبير فصارحنى بشىء كثير عن داخليته .

قص على كيف فقد ثروته جميعها ، وأنه بين عشية وضحاها أصبح فقيرا معدما لا يملك قوت يومه - قصة لو لا أنى تحققت صدقها من فراو برجمان لقلت أنها من نسج الخيال - وذات يوم قرأ فى إحدى الصحف إعلانا عن غرفة مفروشة تقدمها بالمجان سيدة متقدمة فى السن لرجل أديب ذى علاقات طيبة مع كبار الناس والعائلات نظير مسامرتها . فقصدها بعد أن قصدها طبعا كثيرون ممن رفضوا النزول على إرادة صاحبة الدار . ومنذ ذلك التاريخ وهو يسكن تلك الغرفة . لأنه قبل كل اشتراطاتها . وهنا وضع الرجل كفه على جبينه وأخذ يفكر

قلت له : « أو كانت شروط السيدة صعبة إلى هذا الحد ؟ »

قال : « ألخص لك ما تأخذه منى هذه السيدة وما تعطيه لى اسمع :

أولا - أن أصحبها إلى المسارح وحفلات الموسيقى والمحاضرات والزيارات

ثانيا - أن أنظم لها قصائد مديح فى الأعياد والمناسبات

ثالثا ـ أن أشكر لها صنيعها معى فى الصباح والمساء من كل يوم

رابعا ـ أن أدعو إلى دارها كبار الأدباء والناس من معارفى من وقت لآخر

خامسا ـ أن لا أستقبل صديقة لى فى دارها

وفى نظير ذلك أتمتع :

أولا ـ بغرفة مفروشة

ثانيا ـ الانتفاع بكل مافى الدار ، أو قل القصر ، من كتب وتحف فنية

ثالثا ـ بالطعام

رابعا ـ بالملابس

ـ خامسا ـ بجُعل صغير لنفقاتى الخاصة لاينقص عن ستين ماركا فى الشهر الخ . الخ .

وأبدى رغبته فى استضافتى ، وأنه قد تحدث عنى للسيدة المحسنة ، وقد رجته عدات مرات أن يحضرنى معه . وترددت فى القبول ، وأخذت أعد وأماطل .

وانصرم شهر فبراير ، وأخذت الأيام الأولى من شهر مارس تمر سراعا ورأيت النقود تذوب بين أصابعى ، فجزعت من هول المستقبل القريب . والعجيب أن صورة ألفريدا عادت تزورنى فى الأيام الأخيرة بالنهار والليل فسببت لى آلاما نفسية عظيمة . وكنت فى غضون تلك الفترة أتردد فى المساء على مقهى تسونز وآخذ مجلسى مع شولتسا الرسام ورفقته حتى صرت واحدا من جماعتهم . والحق أن الفترة التى كنت أقضيها معهم كان فيها عزاء وسلوى لقلبى المجروح . وأحبونى وأحببتهم . وغلب على فيما بينهم اللقب الذى اختاروه لى « عمدة تسونز » حيث اختفى بعده من هذا المقهى لقب الصحفى المصرى إلى يوم ارتحالى عن برلين .

وزارنى فى أحد الأيام هرشفرين وقال لى . « أنت مدعو عندى اليوم على الشاى . ولن يقبل منك أى عذر ما . فقد تحدثت مع صاحبة القصر المنيف (وكان يلقب السيدة المحسنة كذلك) اليوم بشأنك . وأفهمتها أن سبب تأجيلك قبول دعوتها ودعوتى يرجع لعوامل نفسانية بسبب فسخ الخطبة بينك وبين الفريدا . وأنك لم تخسر بخسارتها زوجا فقط ، بل رفيقة كانت تعينك على استئناف حياتك الأدبية . فكان ردها أن الأخذ بيدك فى هذه المحنة أمر واجب على كل صديق وذى مروءة ولن يكون ذلك إلا بأيجاد حسناء أديبة تحل محلها . وأخذت على عاتقها أن تدعو إحدى معارفها من الأديبات المعروفات . وذكرت لى اسمها . وللصدف أنى أعرفها . وقد قرأت بعض مؤلفاتها وأعرف أن لها كتبا نقلت إلى اللغات الاجنبية . ها أنت ذا ترى أن لك اصدقاء فى الغربة يفكرون فيك . نحن فى انتظارك فى الساعة الخامسة . إياك والتأخير . فعروسك ، أو قل صديقة المستقبل ، ستكون بلا شك حاضرة . »

فضحكت . قال : « وما يضحكك ؟ »

قلت : « يقولون عندنا . وداونى بالتى كانت هى الداء . يظهر أن الناس هم الناس فى جزيرة العرب أو فى ألمانيا . قبل الف سنة أو اليوم . يشيرون فى مثل حالى باقتحام مغامرة جديدة . ولو دريت أنى قبل أن أحب ألفريدا كنت أهزأ من الحب . وأنه أول حب لى . ولعله آخر حب . وأنى لم أرتب له ترتيبا كما ترتبون اليوم . ولا نلت فيه مساعدة إنسان . ولو عرفت ذلك عرفت الفارق بين حب وحب . وعلمت أنكما قادمان على فشل محقق »

« أنا ياصديقى أعرف الفتاتين ألفريدا وإرينا . وأين الفريدا على مابها من محامد ومحاسن من إرينا . نعم قد تمتاز الفريدا بأنها تحمل لقب دكتورة

ولكنها إذا نازلت إرينا فى أى ميدان آخر فالفوز محقق لأرينا . سنرى ؟ على أية حال نحن فى انتظارك . »

وجرت العادة أن يعنى الإنسان بنفسه وهندامه فى مثل هذه الزيارات ، ولكنى لم أعر هذه الزيارة شيئا من اهتمامى ، فقد كنت فى واد وأصحابها فى واد . وذهبت تأدية للواجب نحو هرشفرين فى الموعد المضروب إلى العنوان الذى أعطانيه . فوجدتنى أمام قصر منيف بحق ، يقوم على قطعة أرض مثلثة الشكل ، يطل على نهر الاشبرى حيث يوجد أمامه شبه لسان يمتد فى الماء ، وقد قامت عليه الاشجار الباسقة ، مما جعل منظره طريفا . وتحققت من البواب عن صاحبة القصر ، وقادنى إلى مسكنها . ودق الباب فجأت خادم مليحة أنيقة الملبس ، ففتحت لى ، وساعدتنى على خلع معطفى وقادتنى إلى غرفة الانتظار . ولم تمض إلا دقائق معدودة حتى جاءت ربة الدار ومعها شفرين . وهى سيدة متقدمة السن تناهز الثمانين ، قصيرة القامة بدينة ، كليلة البصر ، شمطاء شاب شعرها . قالت وهى تدنو منى ، وقد أمسكت المنظار ذا المقبض الذهبى فى يدها وأدنته من عينها : « السيد المصرى ؟ أنت صحفى ؟ أليس كذلك ؟ مرحبا بك ! »

ومدت لى يدها فقبلتها على مضض لأنى أبغض هذه العادة . واستأنفت الحديث : « حدثنى عنك كثيرا هرشفرين : تفضل إلى غرفة الاستقبال »

وسرنا فى دهليز وفير الأثاث تتقدمنا خادم ففتحت لنا بهو الاستقبال ، ففتحت بابين من الزجاج بحجم الحائط فكشفا عن غرفة فسيحة تطل على شبه جزيرة أو عن اللسان الذى حدثتك عنه ، فلم يكن ثم حائط يقابل الباب ، ولكن كانت شرفة كبيرة من الزجاج . وهكذا كانت هذه الغرفة من حائطين فقط وبابين من الزجاج . وكان لكل غرفة فى القصر اسم يدل عليها فكانت اسم هذه الغرفة « السفينة » . فاذا بدت طلائع الغسق ، وكنت من الشعراء العاطفيين ،

وأشعلت مصابيحها الغربية ، وأنير الطريق تحت ، وانعكست أنوار هذه وتلك على الماء تخيلت أنك فى مركب ضخم يشق بك عباب اليم . فثم ماء وثم سفن تسير فى الماء ، ومن وقت إلى آخر تسمع صفير المراكب ، وفى الناحية المقابلة للنهر من القصر ترى صورا بديعة من ريشة كبار الفنانين لسفن تسير على بعد منك تتخيلها من مكانك فى الغرفة المجاورة سفنا حقيقية . . . وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث . فقال هرشفرين مداعباً : « دقت لنا الآنسة إيرينا تليفونا اليوم قالت إنها ستتأخر قليلا ، فلا تقلق » .

فقالت صاحبة القصر : « هذا صحيح . ولكن المنظر هنا مسل ، ولن يطول انتظارنا . قم أفرجك على دارى . وفى غضون ذلك ستحضر الآنسة إيرينا ، فنتناول معا الشاى أو القهوة إذا شئت ! »

وعادت بى إلى باب المسكن من حيث دخلت . وأشارت إلى مائدة هناك عارية فى المدخل يخيل إلى أنها من المرمر ، وقالت لى ما رأيك فى هذه المائدة ؟ وهل تظنها تمتاز عن أمثالها بشىء ؟ »

فلم أحر جوابا ، ولكنى أردت مجاملتها فقلت : « رأيى فيها أنها آية فى الجمال ، وأنها تمتاز بدقة الصنع » .

« لا ، لم أعن ذلك . دق بعقدة أصبعك الوسطى على أى مكان فيها أيا ما كان » .

فدققت فى نقط مختلفة ، فكنت أسمع أصواتا موسيقية تختلف عن بعضها البعض . فضحكت السيدة وقالت : هل فهمت الآن بماذا تمتاز مائدتى عن موائد الناس . إن جوقة موسيقية تستطيع أن تحيى عليها ليلة ساهرة » .

وأشارت إلى الحيطان فالفيت صوراً قديمة وحديثة من كبار الرسامين فى أوربا . وأخذت تشرح لى الصور صورة صورة . فتكلمت عن تاريخ رسمها ،

وتاريخ اقتنائها ، وطريقة الحصول عليها ، فكأنى كنت أسير وراء أستاذ كبير فى أحد معارض الفنون الكبرى . وانتقلنا الى صالة فسيحة حليت حيطانها كذلك بالنقوش . والحق أنه قد اختلط على الأمر فى بعضها فلم أدر أنقشت على الحائط أم عملت فيه مع البناء . أما أرضها فكانت مفروشة بمختلف الطنافس والبسط الغالية مما لا يوجد مثله إلا فى دور الملوك ، وأخذنا نتنقل من غرفة لغرفة ، وكل غرفة تختلف عن الأخرى فى الاسم وفى المميزات حتى انتهى بنا المطاف إلى غرفة غربية تطل على حديقة غناء تمتاز بأشجارها الباسقة المعمرة . فهذه شجرة عمرها مائة عام ، وتلك أكثر أو أقل . وقد انتشرت هنا وهناك بعض الموائد والكراسى المريحة فكبرت وعللت وسألت : « لمن تكون هذه الجنة العظيمة ؟ »

ضحكت السيدة وقالت : « هذه لى . إنها ملحقة بالقصر . لقد جمع قصرى بين الماء والخضرة . وفى استطاعة ساكنه أن يتخلى عن العالم الخارجى لأصحابه ، فلم أترك وسيلة من وسائل الراحة والنعيم إلا وأوجدتها فيه ، فهذه جبلاية صناعية . وهذه غرفة لتربية الزهور الأجنبية الخ . »

ثم أخذتنى إلى المطبخ والحمام فرأيت فى هذا القسم من الاستعدادات الحديثة ما لم أره ولا سمعت به . وقالت لى : « إن ما تراه فى المطبخ لا قيمة له إذا لم تكن القائمات بشؤنه يعرفن إدارته . عندى لذلك ثلاث طاهيات . إحداهن بولونية ، والأخرى فرنسية والثالثة من فينا . لأن لكل من هؤلاء الثلاث ميزتها فى الطبخ . وستجرب طعامنا من وقت لآخر . أليس كذلك ؟ »

وجاءت إحدى الخدم وأنبأتنا أن الآنسة إيرنيا قد حضرت وهى فى انتظارنا فى غرفة الانتظار . فذهبنا إليها . فوجدناها واقفة فى وسط الغرفة ، فما رأتنا حتى تقدمت إلينا فالتقينا وإياها فى منتصف الطريق . كانت تلبس قبعة سوداء وقد

انشحت بوشاح غطى منكبيها وجيدها معتذرة بانحراف مزاجها . كل ما ارتسم فى مخيلتى من أوصافها فى هذه المقابلة أنها مشوقة القد ، نحيلة الجسد ، لها وجه صغير كوجوه الأطفال ، ناصع البياض ، دقيقة الأعضاء ، أشبه ما تكون بأعضاء الغزال ، متعجرفة متواضعة معا .

عرضت علينا صاحبة القصر أن ننتقل إلى غرفة المائدة . وهناك قضينا ساعة نتحدث فى الشئون العامة ، ولم يعر أحدنا أخاه اهتماما . فكان معظم حديث الفتاة موجها للسيدة ، كما كان معظم حديثى موجها للهر شفرين . ثم انتقلنا إلى غرفة الاستقبال مرة أخرى . وهناك انتقل بنا الحديث إلى الأدب والأدباء . وهنا قالت لها السيدة صاحبة القصر مشيرة إلى : « السيد أديب متمكن ، له أسلوب خاص يكاد ينفرد به . نشرت له جريدة الفوسشا عدة قصص لم أقرأ أبدع منها . أطلعنى عليها هر شفرين ، فطلبت إليه أن يقدمه لى . وهو خطيب الآنسة الدكتورة ألفريدا برجمان صاحبة المؤلفات المشهورة فى الأدب الإنجليزى ، ولابد أنك قرأت لها شيئا . وقد افترقا لأمر ما . وكانت تعاونه فى بعض كتاباته . وأظنه كان قد بدأ كتابة كتاب معها ولم ينجزه . وهو فى حاجة ماسة إلى صديقة أديبة تنجز معه هذا الكتاب . وقد اخترتك لهذا العمل فماذا ترين ؟ »

قالت إيرينا ولم يبد على ديباجة وجهها أى أثر تستشف منه ما فى قرارة نفسها : « لا أستطيع أن أجيب بالقبول أو النفى قبل أن أطلع على الجزء المكتوب من الكتاب لأرى هل فى طاقتى التعاون معه على العمل أولا ؟ » .

ثم التفتت إلى قائلة : « ما موضوع الكتاب ؟ » .

قلت : « قصة عائلة مصرية تشرح حالة مصر فى الخمسين سنة الأخيرة . »

قالت : « يخيل لى أنه موضوع طريف . على أية حال اليك عنوانى وتليفونى أرجو أن تمر على بأصول الكتاب لأقول لك رأيى فيه . وتستطيع أن تتصل بى كل يوم بالتليفون بين كذا وكذا . » وأعطتنى بطاقتها .

فلم يعجبني أسلوبها في الحديث وأخذتني العزة بالإثم وقلت في نفسي : « هذه الفتاة تريد ان تصدر حكمها على كتاب من عملي وعمل الفريدا ! ! . . .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

اطمئني أيتها الفتاة فلن ترى حرفا من الكتاب ، ولن تريني بعد ذلك . أنت التي ستحتلين مكان الفريدا من قلبي ؟ ؟ ؟ ها ! ها ! ها ! ها ! » .

وأزف وقت الرحيل فاستأذنا على أن نكرر زياراتنا ، وسألت صاحبة القصر : « من من السيدين سيشيع الآنسة إلى دارها ؟ » .

فقال هر شفرين : « إذا لم يكن لدى صديقنا المصري ما يمنعه ، ربما يحسن أن يقوم بهذه الخدمة ليتعرف كذلك على الدار . »

فخفت أن يسترسل في الحديث ، وأدركت ما يرمي اليه فقطع عليه حديثه : « آسف لأن لدى موعدا . »

وتركت له الفتاة ليصطحبها الى دارها . وافترقنا من أمام القصر ، ولو أن طريق كان يستلزم أن أسير معهما جانبا منه . ولم أكد أفترق منهما حتى مزقت بطاقتها التي أعطتها لي .

ذهبت على التو إلى داري من طريق آخر ، وجلست الى مكتبي . ونشرت أوراقي جميعها أمامي . واستخرجت من بينها كل الأصول التي كتبتها مع الفريدا ما أنجز منها وما لم ينجز ، ولففتها بعناية ، وشددت رباطها ، ودفنتها في قعر خزانة ملابسي ، ووضعت فوقها ملابس الصيف مما لا أستعمله في ذلك الوقت .

فعلت هذا دون وعي أو سابق تفكير . لماذا فعلته ؟ لا أدري . لعله كان عندي مقدسا وخشيت أن تمسه يد .

عند ايرينا

مضى على هذه الزيارة ثلاثة أيام لم أسمع فيها شيئا عن حضروها ، ولم أفكر فى الاتصال بأحد منهم . وفى صباح اليوم الرابع الموافق ١٧ مارس زارنى هرشفرين معتذرا عن تأخره كل تلك المدة بمشاغل جدت لم تكن فى الحسبان. ثم ابتسم ابتسامة لها معناها وقال : « لعلك حمدت لى هذا التأخير ، فقد أعطيتك فرصة لتنمية صلاتك بايرينا ؟ قل لى كيف تجدها ؟ دع عنك أدبها الجم جانبا، إنها فتاة فاتنة ، أليس كذلك ؟ »

قلت فى غير اكتراث : « لا أجدها فاتنة كما تراها ، ولم أرها منذ افترقنا . »

قال مندهشا : « وكيف كان ذلك ؟ ألم تعدها باحضار أصول كتابك ؟ اعلم أنها فتاة رقيقة الأحساس . ماذا عساها أن تظن الآن ؟ لا ، ياعزيزى، أن مثل هذا السلوك لا يغتفر لك . إنك تحرجنى معك . »

وساد بيننا صمت عميق ، أما صمته فكان صمت الغيظ ، وأما صمتى فكان صمتا من نوع آخر ، صمت الذى لا يأبه للأمر ، وقطع هـذا السكون الذى خيم علينا فترة من الزمن دق الباب ، علمت بعده أنى مطلوب على التليفون .

« من الذى يتكلم ؟ »

« إيرينا . . . . لقد وعدتنى عند زيارتنا لصاحبة القصر المنيف على حد قول صديقنا هرشفرين بأن تحضر لى أصول كتابك الذى تريد أن تتمه معى لأتصفحه ، وقد أعطيتك عنوانى وانتظرتك الآن اربعة أيام ولما تأت ، فأردت أن أستفسر عما حدث . »

فتولتنى الحيرة . واهتزت السماعة فى يدى ، وأجبتها وأنا أتلعثم : « معذرة

ايتها الآنسة ! لقد فقدت عنوانك ، ولم أر هرشفرين طول تلك المدة على غير عادته إلا الساعة . فهو عندى الآن . وعدا ذلك كنت مشغولا . أشكر لك تفضلك بالسؤال ، وأعتذر لك مرة أخرى . . . . »

« تستطيع أن تقيد عنوانى عندك . . . . . وإذا شئت حضرت الساعة وإذا شئت حضرت عصرا لتشرب معى الشاى . »

« الشاى ! لا ، لا ، أش .. أشكرك . . . »

فقاطعتنى . « ليتك تصلنى بالهر شفرين فأنى أحب أن أقول له شيئا . »

فناديته من غرفتى بصوت عال : « هر شفرين ! أنت مطلوب على التليفون . »

وسلمته السماعة وابتعدت عنه قليلا حتى يستطيع أن يتحدث مع الآنسة بحرية . ولم أسمع شيئا مما دار بينهما غير قوله بصوت عال وهو يضع السماعة : « إلى الملتقى ! »

وعدنا إلى الغرفة . وهناك قال لى هرشفرين : « وعدت الآنسة ايرينا باسمك أن تزورها الساعة مع أصول كتابك . وهى فى انتظارك الآن . فأسرع وأعد نفسك لهذه الزيارة . أين وضعت الجزء المكتوب ؟ ماهذا التجهم ؟ اضحك ياعزيزى تضحك الدنيا معك . »

« أزورها ؟ أزورها الساعة ؟ ومعى أصول الكتاب ! لا ! أزورها ولكن الكتاب ليس من حقى وحدى ، وليس لأحد أن يمسه . لقد أخفيته . . أزورها مادمت قد وعدتها . »

« وأين أخفيت الكتاب ؟ »

« فى مكان أمين ، لا أحب أن أراه ، إنه يحرك فىّ ذكريات حلوة مرة . لا ، بل أحب أن أراه ، ولكنى لا أحب أن يمسه أحد ، وعلى الأخص يد فتاة بعد ألفريدا . هنا أخفيته . » وأشرت إلى المكان الذى وضعته فيه .

هز الرجل رأسه أسفا وحزنا للمال ، وتقدم من الخزانة وفتحها وأمرني في رقة وهو واضع يده على كتفي : « أرنيه ! »

فأريته إياه ، فقرأ فيه بضع صفحات ثم قلب فيه وقال : « تكتب من كتابك هذا نحو مائتي صفحة ! ثم تدفنه تحت ملابسك ، اسمح لي أن أقول لك هذا إجرام . هيا بنا أسرع ، لقد أزف الوقت ، وتأبط ذراعي وصحبني إلى محطة الترام ، وصافحني وسلمني أصول الكتاب .

أرغمت على هذه الزيارة إرغاما ، وما أرغمني إلا خجلي من هرشفرين أولا ، وضعفي أمام الآنسة ايرينا ثانيا . وبيّنت النية على أن أضع حدا في هذه الزيارة لهذه المحاولات فأنا غير راغب في عقد صداقة جديدة . . أنا لا أبحث عن بديل لألفريدا ، فليس هذا من طبعي . وفضلا عن ذلك فأن عندي من مشاغل الحياة والجـــري وراء رزق اليوم ما يكفي لأشغال بالي عن فاتنات القصور أو قل حـور الجنان .

ودققت الجرس ففتحت لي إيرينا نفسها . أهلت بي ورحبت ، وقادتني إلى غرفتها ، فقطعنا دهليزا طويلا يكاد يكون مظلما حتى بلغناها . فقد كانت تسكن غرفة شاغرة في هذه الشقة أثثتها هي على مزاجها . وكانت حجرة ليست بالصغيرة ولا بالكبيرة . فيها خزانة للملابس واخرى للمكتب ، و (بوفيه) عليه صحنان أحدهما فيه فواكه مختلفة والآخر فيه نقل . وزهرية فيها زهور يستلفت تنسيقها النظر . وعدا هذا اريكة تستخدم للجلوس والنوم معا ، ومائدة وما كينة كتابة ، وقد فرشت أرضها بالطنافس الفاخرة . كما أن كل أثاثها كان من النوع الغالي .

ابتدأت الحديث معتذرة عن سكنها ، وأن الظروف الاقتصادية الجديدة قد اضطرتها لأخلاء دارها وبيع أثاثها والا كتفاء بهذه الغرفة حتى تنجلي الحال .

وقدمت لى فاكهة ونقلا . وتحدثت معى طويلا على غير ماعرفته عنها فى زيارة صاحبة القصر المنيف . وكانت رقيقة فى حديثها . ثم سألتنى عن أصول الكتاب ، فسلمته اليها ، وكنت أحسب أنها ستتصفحه ، فأبت فى الأمر فى نفس الجلسة على أن لا تراني ولا أراها بعد ذلك . ولكنها قالت لى : « اتركه لى يومين ثلاثة ، بعدها أرى إذا كان فى استطاعتى التعاون معك . سأتصل بك فى الحالين »

فتركته لها كارها مترددا ، وسلمت وانصرفت .

مضى يومان على هذه الزيارة ، وفى صباح اليوم الثالث تسلمت منها بالبريد كتابا مختصرا حلو العبارة ، تدعونى فيه لتناول الشاى ، والاتفاق على مواعيد العمل ، لأن الجزء الذى قرأته من كتابى قد أعجبها . الخ . الخ . .

الشاى ! أتناول الشاى ! من قال أنى أحب الشاى أو أنى أريد أن أتناول الشاى معها ؟ لماذا لا تدعنى هذه المخلوقة وشأنى ! وهل لدىّ رأس للعمل ؟ نعم يعجبها كتابى ، ومن من الناس لا يعجبه هذا الكتاب ؟ ومع ذلك أحسست فى تملقها لى وثنائها على الكتاب شيئا من الراحة والرضا ، وتلوت كتابها مرة ثانية وثالثة وأخيرا اعتزمت زيارتها .

وكانت فى مقابلتها لى هذه المرة أرق منها فى المرتين السالفتين . وبدا فى جرس صوتها شىء من العطف على مما بلبل أفكارى وشوش على جلستى . لعلها علمت طرفا من تاريخ حياتى ، وما ألقاه فى غربتى من الذل والشدة ، وما أكابده من الوحدة والوحشة ، وأن كتابى لم يقع من نفسها الموقع الذى حدثتنى عنه ، وأنها ليست إلا ممثلة بارعة ، أخذتها الشفقة بهذا المخلوق التعس فزعمت ما زعمت ، وإلا فما هذه النغمة الغريبة التى أحسها فى صوتها . هذه نغمة أعرفها فى صوت المحب أو المحسن الرحيم ، ولا محل للحب بيننا ، فكلانا ليس فى مهبة الصبا . ولست بالأمير الذى تحلم به الفتيات وتنتظره ، وعلاقاتنا جديدة ومحدودة فلا

تسمح لنا بالتفكير فى ذلك الشىء الذى يسمونه حبا . فلم يبق إلا الرحمة والشفقة والإحسان لهذا المنكود ، ودبت عقارب الشك فى نفسى . فغلى دمى فى عروقى ، وأصبح الكرسى تحتى ساخنا . . وكيف لا أثور على هذه المرأة الغريبة عنى والتى تعمدت إهانتى والأساءة إلى دون سبب . لقد عشت طول حياتى فى أيام شدتى ورخائى على مبدأ واحد لم أحد عنه قيد شعرة ، هو بغض الأحسان والرحمة . ولا أذكر أن يدى مدت يوما بأحسان لأحد ، لأنى أرى فيه إذلالا ليس بعده إذلال للمحسن إليه . ولا أحب أن أذل رجلا أكبره الخالق وفضله. بل كنت إذا استطعت ان أسدى له يدا غير الإحسان فعلت وضحيت أضعاف اضعاف ما كنت أبذله لو أحسنت اليه . وكنت إذا فعلت شيئا من هذا أفعله كواجب على لا يحلنى من تأديته عذر او عائق . وحدث فى بعض الحالات أن ضعفت نفسى أمام بعض المرضى والفقراء فهممت بالاحسان اليهم ، ولكنى ملكت نفسى فى آخر لحظة وأخرجت يدى بيضاء . وأبغض الشفقة والرحمة كذلك ، لأن فيها قصا لجناح العدالة ولو بعض الشىء ، وانا أناضل طول حياتى لنشر العدالة بين الناس . فما يعطى بيد الرحمة انما ينتقص من ميزان العدالة . . ولم كل هذا الكلام ؟ وما معنى هذا الدفاع الطويل ، وامام من أدافع أنا . يكفى أن طالب الرحمة ومتقبل الأحسان ضعيف ، والضعف ليس من طبيعتى ، وما زلت على الرغم مما أنا فيه أحس القوة ، وأريد أن أعيش قويا . وأموت قويا .

ولم أعد أطيق الأصغاء طويلا لنغمة صوتها ، فلم يبق إلا التنمر لها وتحديها فقلت لها : « معذرة يا سيدتى ! هل سبق لك أن اعتليت خشبة المسرح ؟ . »

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة كشفت عن صفين من الأسنان الجميلة التى قل أن يجد لها الأنسان نظيرا بين حسان الأوربيات . وقالت : « لا ، ولو أنى درست المسرح . ولكن قل لى كيف خطر لك هذا الخاطر ؟ » .

قلت : « لم تخب فراستى ، فعبارتك منتقاة ، ونغمة صوتك ، ومخارج

الألفاظ عندك بينها وبين كلماتك تناسق عجيب ، قل أن يحافظ عليه متكلم الا على المسرح . »

« أشكر لك هذا الأطراء » .

فأغضبنى برودها ، فلم أر بدا من مهاجمتها بشكل أوضح فقلت : « معذرة مرة أخرى ! ألك خطيب او صديق ؟ » .

فضحكت بصوت مسموع على غير عادتها « لا . » وهنا شددت على مقاطع كلماتها . « لا ، وأوكد لك هذا » .

فبدا على الارتباك . وخفت أن تستأنف الكلام فتسألنى عن السبب الذى حدا بى إلى هذا السؤال وأبيت إلا أن أطلق آخر سهم عندى ، ولو خالفت فى ذلك كل ماتواضع عليه الناس من قواعد الآداب والتقاليد قلت : « أتحبين ؟ »

فتنهدت تنهداً عميقا ، وانقلب بياض وجهها الناصع إلى صفرة فاقعة ، وابتسمت ابتسامة مصطنعة ، وقالت وهى تمد ذراعيها أمامها كأنها تتمطى ، أو كمن استيقظ بعد غفوة : « لا ، أحب ؟ فى هذه السن ؟ كم تحسب عمرى ؟ لقد تخطيت الثلاثين . وكيف لى أن أحب ؟ وما أنا إلا مجرد حزمة من الأعصاب . » وشابت عبارتها الأخيرة نغمة الذلة والانكسار ، فانقلب الموقف فى لحظة ، وبدا لى أنها هى التى تستحق العطف والرحمة ، وأنها ربما تبحث عنهما ولا تجدهما . وقد تكون بعرض تعاونها معى على الكتابة إنما تبحث عن عزاء وسلوى ، وخير العزاء ماوجده الإنسان عند طالب العزاء .

فكدت أضعف أمامها ، فقد خطر لى أن أعينها على تحقيق عزائها فأطيب خاطرها وأمسح بيدى على رأسها وخدها وكتفيها ولكنها استأنفت الحديث : « لم تسألنى كل هذه الأسئلة ؟ »

« وهل يخفى على ذكائك هذا ؟ أنا كاتب اجتماعى كما تعلمين ، أعيش للدرس

والكتابة . وأنت كاتبة مثلى . فنحن زميلان وقفا حياتهما على دراسة أمراض المجتمع وتحليلها وتشخيصها وتطبيبها . وهل ثم محل للف والدوران بين طبيبين ، إذا أراد أحدهما معالجة مشكلة من مشاكل الحياة فاستشار زميله فيها ، أو أن هناك محلا للحذر أو التستر أو الحياء بينهما . ارفعى الكلفة معى ، وخاطبينى بصراحة وبساطة فنحن زميلان كما قلت لك . ومن يدرى فقد يكون من وراء صراحتك أن نخرج معا كتابا جديدا ؟ ألسنا زميلين ؟ ألسنا كذلك ؟ »

« عندك حق . بل هناك أشياء كثيرة سنتحدث عنها فى المستقبل ، والفرص لدينا كثيرة للتحدث عن هذا وذاك . دع الكلام فى هذه الموضوعات الآن . وقل لى متى يسمح وقتك للعمل »

« للأسف وقتى يسمح كل ساعة ، فأنا فى الوقت الحاضر لا أزاول عملا . »

واتفقنا على أن أزورها كل يوم فى الساعة العاشرة صباحا لنعمل معا حتى الساعة الواحدة بما فى ذلك يوم الأحد .

ولما كنت دقيقا فى كل معاملاتى قلت لها : « اتفقنا ! غير أنى أحب أن أكون معك صريحا من أول الأمر . إن ظروفى الحاضرة ليست على ما أحب ، ولا أستطيع أن أدفع لك أجرا على عملك . غير أنى أعدك إذا قبل احد الناشرين شراء كتابى ، فلك حصة فى ثمنه ، أترك لك تقديرها . »

« وأنا رضيت . ولنبدأ العمل فى الغد ! »

وأردت أن أسلم استعدادا للانصراف ، فرجتنى أن أبقى عندها بعض الوقت إذا لم يكن فى ذلك مضايقة لى طبعا ، فأنها قد خصصت لى عصر اليوم وجزءا من مسائه . فرفعت رأسى لأعتذر لها ، فرنت إلى بعينيها فلمحت فى نظرتها ضربا من الرجاء لم أستطع مقاومته ، فبقيت مكانى ، وقبلت عرضها وشكرت لها حسن

ضيافتها ، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث ، فصلت منى بمهارة ورقة عن كل ما تريد أن تعرفه عنى . ثم حولت الحديث بلباقة قالت : أتعرف أن كثيرا من اليهود فى المانيا يهاجرون الآن إلى فلسطين ، وانهم فى حاجة ماسة لتعلم اللغة العربية ؟ وهذه فرصة لخدمة لغتك ونشرها وهى فرصة ذهبية كذلك للذى يقوم بمثل هذا العمل ، لأن مدرسة اللغات الشرقية ترفض قبول اليهود بين طلابها ، والمستشرقون من اليهود مشغولون بتدريس اللغة العبرية فى فصول ليلية وأخرى نهارية قد أوجدتها الجمعية اليهودية فى جميع أنحاء برلين ، بل فى جميع أنحاء المانيا . ذلك لأن اللغة العبرية تسهل على عارفها الحصول على تأشيرة للسفر إلى فلسطين، وهى فوق ذلك لغة هذا الشعب وتأتى فى المقام الأول . » وصمتت قليلا كأنها تستعد لهجوم جديد ، ثم استأنفت الحديث قالت : « لا أظنك إلا بارعا بلغتك ، وإذا لم يكن لديك مانع ، فأنا أعرف رؤساء القسم الثقافى فى الجمعية اليهودية ، وأنا على استعداد لمفاوضتهم فى إنشاء فصل لتدريس العربية ، وأنا أعتقد أنهم يدفعون أجوراً طيبة ، والعمل ليس مرهقا . فماذا ترى ؟ »

أشكرك سأفكر فى الأمر . »

وخرجت من عند ايرينا غير قادر على تكييفها ، مندهشاً لاهتمامها بأمرى ، مقدراً أدبها ، وراضيا بعض الرضا عن هذه الزيارة التى حاولت التخلص منها .

بينى وبين هتلر وفون رات

حقا إنى حيوان كسول ! بمجرد أن ربحت قليلا من المال ، ويعلم الله كيف ربحته ، فترت همتى ، وسكنت إلى ما فى جيبى أنفق منه بدون حساب ولم أعد أبحث عن عمل . حتى إذا نفد ، أقلقت أهل السموات والأرض شاكيا

نادرا حظى ، جادا وراء عمل . وأين كنت طول تلك الأيام ؟ كنت نائما فى الدار أو جالسا فى مقهى تسونز ، أو متريضا فى أحد المنتزهات . ماهذه شيمة رجل جاد ، يجب ان يعمل ، ويجب أن يعيش . هذه الفتاة لم تلق من صدمات الحياة بعض ما لاقيت ، ومع ذلك فهى ترى أبوابا فى الحياة لم أرجها . لقد رفهت عقلى فلم أحركه بالتفكير ، فتبلد . فلم يبق لى إلا أن أعين لى وزراء ومستشارين يفكرون من أجلى ، ويشيرون على بما يجب عمله . تبالى ولبلادتى ! واستعدت كلمات ايرينا بشأن محاولة تدريس اللغة العربية فى مدارس اليهود فذكرت أنى كنت يوما ما مدرسا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية الملحقة بجامعة برلين ، وأنى كنت أؤدى عملى على الوجه الأكمل حتى حزت رضا إدارة المدرسة ، وأنى فصلت من عملى دون سبب أعرفه ، ولم أحاول طول تلك المدة أن أتعرفه . فلم لا أرفع مظلمة إلى مستشار الدولة وزعيم الأمة الألمانية لعلى أعرف السبب ، فأستطيع الدفاع عن نفسى ، وربما كان فى ذلك وصل لما انقطع من أسباب العمل . وأخذت قرطاسا وقلما وكتبت له كتابا فى ثلاث ورقات من الفولسكاب ، جاء فيه :

ياصاحب الفخامة !

كن عذيرى إذا اضطررت لشغل جانب من وقتكم ، فالأمر لايتعلق بحياة فرد أو موته ، ولكنه يتعلق بشرف دولتين ، وبتنفيذ العدالة فيهما ، وهما المانيا ومصر .

أنا مصرى صحفى جئت إلى المانيا فى عام ١٩٣١ أحمل جواز سفر مصرى صالح لخمسة أعوام ، مؤشرا عليه من أحد قناصل المانيا بالتصريح لى بالأقامة فى بلادكم لمدة عام . ولم آت إلى البلاد فارًّا أو مهاجرا ، بل للترويح عن نفسى ، ولدراسة اللغة الألمانية ، وبمجرد وصولى إلى برلين اتصلت بالقنصلية المصرية

وسجلت اسمى وعنوانى هناك طبقا للقانون .

وبعد انقضاء بضعة أشهر على إقامتى فى برلين علمت من الصحف المصرية أن حكومتى سحبت جنسيتى فى أثناء غيابى بمرسوم ملكى ، وأشارت الصحف إلى أن السبب فى ذلك يرجع لاتصالى بالشيوعية والشيوعيين . ولم يسبق هذا السحب أى تحقيق معى من السفير المصرى فى برلين ، ولا وجهت الىّ حكومتى أى اتهام ، ولا استدعتنى للتحقيق معى فيما نسب الىّ . كما أن نص المرسوم لم يرسل الىّ رسميا .

أما دعوى الحكومة المصرية السالفة أنى أنتسب للشيوعية والشيوعيين ، فأحب أن أؤكد لفخامتكم أنى انقطعت عن ذلك قبل حضورى الى المانيا . وأوراقى الموجودة فى رياسة البوليس وعند الجستابو تؤيد هذا .

وبعد سحب جنسيتى بأيام سحبت الحكومة الألمانيه السابقة جواز سفرى المصرى بدعوى فحصه وبعد بضعة أسابيع سلمنى البوليس الألمانى « تذكرة شخصية » مما يحملها من لاجنسية له ، وذلك بدل جواز سفرى . وهذه التذكرة كما تعلمون مقيدة لحريتى حيث لم أعد أستطيع حراكا فى أى بلد من بلاد الأرض.

وعينت بعد ذلك مدرسا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية الملحقة بجامعة برلين ، فقمت بواجبى خير قيام . وفى شهر كذا فصلنى وزير المعارف الحالى دون تسبيب . ومنذ ذلك الحين وأنا فى مركز حرج .

فلجأت إلى السفير المصرى الذى سلم معى بهـــذا الظلم الذى وقع على وأخـــذ على عاتقه أن يعالج المسألة فى مصر . ولكن مسعاه للأسف لم يكلل بالنجاح .

وبما أنى مستعد ، كما كنت دائما مستعدا المثول أمام محكمة مصرية وبما أن الحكومة الألمانية الحاضرة جردتنى من عملى دون تسبيب

وبما أنى متعطل منذ زمن طويل دون أن أقع عبءا ثقيلا على الدولة الألمانية

وبما أن مواردى قد نضبت تماما ، أضف إلى هذا أنى لا أستطيع مغادرة البلاد .

وبما أنه لايدلى فى وقوعى فى مثل هذه الحال الحرجة

لذا

أناشد فيكم إحساس العدالة ايها المستشار المحترم راجيا :

إعادتى إلى عملى ، أو تقليدى أى عمل آخر يتفق مع كفايتى فى أية جامعة أخرى.

أو إعادتى إلى مصر بطريق دبلوماسى

أو نفيى من البلاد إلى أى بلد كان .

وانه لمن فضول القول أن أصف لكم أيها المستشار المحترم حقيقة حالى بالتفصيل ، فأنت كمحارب قديم فى ميدان السياسة تستطيع تقديرها بنفسك . . . . الخ . الخ

ونسخت الكتاب على الآلة الكاتبة وبعثت به موصى عليه . ومضى يومان ، وفى اليوم الثالث جاءنى رد من الفورر فى ثلاثة أربعة أسطر يقول فيه :

ردا على كتابكم رقيم كذا قد أمرت بتحويل أوراقك إلى وزير الخارجية (فى ذلك الوقت) هر فون رات الخ . الخ .

فدب الرجاء فى قلبى من جديد . وأطلعت بعض أصدقائى على صورة كتابى للفورر وردده على فهنأونى مقدما : والحق أن سرعة الرد وتحويل أوراقى إلى وزارة الخارجية كان أمرا مبشرا . وانتظرت أياما خبرا يأتينى من وزارة الخارجية ، فلم أحظ بشىء منها . فذهبت بنفسى إلى هناك ، وطلبت مقابلة الوزير . فأعطانى البواب استمارة من جزأين بها بيانات مكررة لأملأها : الاسم والعنوان الخ.

وثم خانة بها أسباب الزيارة فكتبت أمامها بناء على طلب الفورر .

ولما قرأها البواب أخذته الدهشة ونظر إلىّ فى حيرة ثم اتصل تلفونيا ببعضهم ، وعاد وسألنى فى أدب : « ماذا تعنى بـ . . . »

فأريته خطاب الفورر . فعاد واتصل ثانية بالتليفون بمحدثه ، ثم أفسح لى الطريق فى الحال ، وأعاد إلى أحد أجزاء الاستمارة . ورجانى أن أصعد فى الطابق الأول . وهناك سأجد من يستقبلنى . وعاد الرجل إلى تليفونه . وصعدت فى السلم فقصدت أول غرفة على اليمين ، وأظنها لرئيس الخدم ، وأريته الاستمارة فقادنى إلى غرفة الاستقبال ، ولم أكد أتناول إحدى المجلات الانجليزية المنشورة هناك على الموائد حتى قدم رجل طويل إلى وقدّم لى نفسه باسم كذا وسلم على فى أدب ورقة وقادنى إلى غرفة الوزير .

سلمت وذكرت اسمى .

فقال لى : « ماذا ترغب ؟ »

« لى شكوى قدمتها إلى الفورر ، فتفضل وأرسل لى الرد على الفور . وقد جاء فيه أنه حول أوراقى على سعادتكم . ولما استبطأت ردكم جئت بنفسى لأسأل عما تم فيها » وقدمت له جواب الفيرر .

قرأه وأمر لى بكرسى ، وقال : « لم تعرض علىّ أوراقك بعد . فالأعمال لدينا كثيرة . هل لك أن تلخص لى شكواك ؟ » .

فقصصت عليه القصة بالتفصيل ورجوته فى النهاية أن يحقق لى طلبا من طلباتى الثلاثة التى طلبتها من الفيرر .

١ ـ أن ترسلنى وزارة الخارجية الألمانية الى مصر بطريق دبلوماسى ، لأنى لا أخشى شيئا فى بلدى

٢ ـ أو أن تعيدنى الدولة الى عملى أو عمل يماثله لأنى لم أقصر فيه

٢ ـ أو أن تنفيني من ألمانيا إلى بلد آخر كيفما كان ، لعلي واجد هناك عملا شريفا أعيش منه .

أصغى الوزير إلى بياني تمام الأصغاء ، ولم يظهر تململا ، مع أني أخذت جانبا كبيرا من وقته . ولما انتهيت من سرد شكواي قال لي : « هذه قصة مؤلمة ، ولم أسمع بمثلها . صحيح يوجد عدد كبير في العالم من لاجنسية لهم ، ولكن ظروفهم تختلف عن ظروفك ، فهم إما فارون أو أنهم هم الذين لايرغبون في العودة إلا بلادهم ، ولم أسمع أن أحدا من هؤلاء المسحوبة جنسيتهم يلح في دخول بلاده ويطلب محاكمته وتأبى عليه دولته ذلك . . . على أية حال لم تتسبب ألمانيا في شيء من هذا . أما عن طلبك الأول ، فليس في مقدور دولة أن تكره دولة أخرى على قبول أحد رعاياها . وأما عن طلبك الثاني ، فلا محل للبحث فيه ، فنحن في ثورة ولا نستطيع النظر في أمر من فصلناهم الآن من أعمالهم ، وأما عن طلبك الثالث فلن يكون ذلك ، لأنك طول مدة أقامتك في ألمانيا لم ترتكب شيئا ضد القانون . فضلا عن ذلك فأنت صحفي ، وعندنا من المتاعب في الخارج مايكفينا . »

فثارت ثائرتي لهذا الرد الهادىء ، وانتفضت واقفا في مكاني وقلت له : « كذا كذا ! ياصاحب السعادة . ما أشبهك بالسيدة زورا » وهممت بالانصراف فقال وقد بدت الدهشة على وجهه : « ماذا تقول ؟ »

أقول : « ما أشبهك بالسيدة زورا »

قال : « وماذا تعني ؟ »

« هل لدى الوزير بضع دقائق ليستمع فيها قصة فراو زور ؟ » .

« نعم تفضل واجلس ! »

فعدت وأخذت مجلسي واندفعت أحدثه قلت : : « تنقلت مدة إقامتي في

براين فى عدة مساكن . من بينها مسكن متواضع لسيدة عجوز فقيرة اسمها فراو زور . ولم تكن حالتى إذ ذاك تسر فقد كنت أكابد أياما عصيبة . ولكنى على الرغم من ذلك كنت أفضل أن أجوع طول الشهر وأشقى ، لأجمع للسيدة كراء غرفتها وأدفعه لها فى أول يوم فى الشهر . ولم يحدث أن اختلفت هذه العادة ، ولاحدث أن اختلفت مع السيدة فى أمر ما . وكان بالدار سواى ثلاثه أربعة من السكان . وحدث أن أحدهم أهانى يوما ما دون سبب ، فدعوت صاحبة الدار فراو زور إلى غرفتى . وحدثتها بما أصابنى من الأهانة على يد ذلك السيد ، وخيرتها بين أمور ثلاثة :

أن تطالب إلى ذلك السيد أن يعتذر لى فى الحال

أو أن ينتقل من المسكن فى أول الشهر

أو أن أنتقل أنا منه .

فقالت فراو زور ـ عندك حق يابنى ـ وذهبت إلى الساكن المذكور وتحدثت معه بضع دقائق وعادت إلى وهى تحك رأسها بيدها وقالت بصوت جهورى لم أتعود سماعه منها : أرجوك أن تترك أنت دارى ، فأخذتنى الدهشة مما تقول . فقلت : حسنا ، سأفعل ذلك فى أول الشهر ، غير أنى أحب أن أعرف السبب الذى من أجله فضلت ذلك الرجل على بينا هو المعتدى على فقالت وهى لاتزال تحك رأسها : أنت يابنى رجل مستقيم ، تعودت أن تدفع لى كراء غرفتى فى أول يوم من كل شهر . أما السيد فلان فدين لى فى أربعمائة مارك ، ولو أكرهته على إخلاء غرفته ضاع علىّ هذا المبلغ . . . . وأنا امرأة فقيرة ، ولاطاقة لى بتحمل مثل هذه الخسارة . . . .

فضحكت ضحكة مرة وقلت لها : عندك حق ! هذا جزائى لأنى جمعت وحرمت نفسى من كل متعة طول الشهر لأدفع لك كراء غرفتك فى أول يوم منه .

وأنت ترى ياصاحب السعادة أنك لاتستطيع أن تلبي طلبي وتأمر بنفي من البلاد لأني لم أخالف القانون . فهل لا يوجد شبه بين القضيتين ؟ »

فضحك الرجل بل قهقه وقال : « يعجبني المنطق المصري ! » وكرر هذه الجملة ثلاث مرات . وأخذته نشوة القادر فأسند ظهره إلى مسند الكرسي ، ومد رجليه إلى ماتحت مكتبه ، وأشرق وجهه ـ فتصورت نفسي أمام أمير من العرب يسأل زائره أن يتمنى عليه ـ قال : « اطلب إلي شيئا آخر ألبي لك طلبك . »

قلت : « اكتب مذكرة بشأني للحكومة المصرية » .

قال : « ولو أن العرف لم يجر بمثل هذا . ولكني سأفعل . »

وبر الرجل بوعده . وبعث بمذكرة للحكومة المصرية . واستعملت الحكومة المصرية حقها الذي خوله لها القانون الدولي فاكتفت في ردها على المذكرة بالعبارة الآتية : « أخذنا علما بمذكرتكم » .

وبقيت مع الحكومة الألمانية في أخذ ورد حتى ربيع عام ١٩٢٥ مما سيأتي ذكره في مكانه .

عود الى ايرينا

أعود بالقارىء إلى إيرينا . ذهبت إلى دارها في صباح اليوم التالي لاتفاقنا على العمل معا ، فوجدتها في انتظاري . فلم أكد أدق جرس الباب حتى فتحته لي بنفسها . كانت ترتدي « بيجامة » من الحرير الأبيض الناصع البياض ، فكانت دهشتي عظيمة لجرأة هذه الفتاة المتواضعة ، لاستقبالها غريبا في دارها بملابس الراحة وزاد في دهشتي أنها لم تعتذر عن ملبسها . جلسنا قليلا نتسامر . وقدمت لي فاكهة ونقلا ، فاعتذرت فقالت : دعه أمامك على أية حال ، فستحتاج إلى شيء منه فيما بعد ، لأن الجلسة ستطول . تستطيع كذلك أن تدخن . الدخان

لا يضايقنى ، بل بالعكس أجد فى استنشاق رائحته لذة . وأنا أدخن من وقت لآخر سيجارة . »

والحق أنى كنت أتحرق شوقا للتدخين ، ولكنى كنت أعلم أن غليونى يضايق كثيرا من ربات البيوت لأن دخانه يعلق بالستائر فتظل رائحته عالقة بها عدة أيام ، كما أن الغليون لا يدخنه فى برلين غير عجائز الرجال أو فقرائهم ، وهذان النوعان من الرجال أشد أعـــداء النساء فى كل بلد . قلت : « ولكنى أدخن فى الغليون وأنتن معشر السيدات فى برلين . . . »

فقاطعتنى ضاحكة : « دخن ، لا بأس عليك » .

فلم أتردد لحظة فى إشعاله . وقامت هى إلى ماكينة الكتابة وجلست أمامها تعد الورق والكربون ثم قالت : « هات ما عندك ! » .

وكنت قد أعددت بعض نقط فى ورقة صغيرة فأمسكتها فى يدى ونهضت من كرسى وأخذت أملى عليها دون توقف . وأنا أذرع الغرفة ذهابا وإيابا . بقيت أملى عليها نحو ساعتين ، كلما تعبت من المشى جلست . وكلما تعبت من الجلوس مشيت : ولم ألتفت فى غضون ذلك للفتاة ، ولا لاحظت أنها قد تعبت .

فانتهزت فرصة موقف فى الرواية توقفت عنده قليلا لأجمع شتات فكرى وأصوغها فى عبارة مناسبة ، وقالت :

« أظن أنه يحسن بنا أن نستريح فترة من الزمن نشغل فيها أذهاننا بتناول بعض الفاكهة . »

فاعتذرت لها عن إتعابها . وجلسنا إلى المائدة ، وتناولت قليلا من الفاكهة .

فقالت : « ما رأيك فى فنجان من القهوة الآن . إنه ضرورى لاستكمال هذا الفصل البديع » .

ونهضت من مكانها دون أن تسمع اعتذارى وجاءتنا بفنجانين من القهوة .

ودقت الساعة ١٢ ونصف ، فقلت : « أظن أن الوقت قد تأخر فلنكتف بما كتب اليوم . »

قالت : « لا ، لا يزال أمامنا نصف ساعة ، وإذا شئت أكثر من ذلك ، فأنى أحب أن أعرف كيف تختم هذا الفصل . »

« حسنا ! »

واندفعت أملى عليها ، وابتدأت تدق على الحروف ، فلم يعد يسمع فى الغرفة غير صوتى يرن فيها فتنقله بدقات أصابعها كلاما مكتوبا على آلتها . وانتهيت من إملائى بعد الساعة الواحدة ببضع دقائق . شكرتها ، وسلمت متهيئا للانصراف سألتنى وأنا فى طريقى إلى الباب : « إلى أين أنت ذاهب الآن ! »

« إلى المطعم لتناول طعام الغداء فالدار ! »

« أتقصد مطعما مخصوصا ؟ »

« لا ، ليس لى مطعم مخصوص . يوما هنا ، ويوما هناك . »

وتناولت طعامى فى مطعم قريب من الدار . واسترحت هناك قليلا ، ثم أخذت أطالع حتى المساء ، ثم قصدت مقهى تسونز ، وقضيت ليلتى مع الرسام كروزا وعصبته.

وانقضى اليوم التالى كسابقه . وسألتنى إيرينا كيف قضيت أمسيتى وعما إذا كنت قد فكرت فى مسألة التدريس فى فصول اليهود ، فحدثتها بكتابى للفورر وأريتها صورة منه فاهتزت يداها وهى تقرأه واصفر وجهها ، وسألتنى « هل بعثت به »

قلت : « نعم ! »

قالت : « ما أشجعك ! »

ولما وصلنى رد الفيرر أريته اياها فأبدت دهشتها . أو الأصح فرحها وقالت:

« هذا شيء مطمئن . وهل أنت معتزم الرحيل ، إذا سهلوا لك طريقه ؟ »

قلت : « فى أول قطار ، وفى أول باخرة . إنى سأنفق هنا من عدم الشغل كما ينفق الحيوان الأجرب فى جحره . »

قالت : « وا أسفاه ! »

ولم أفهم ماتقصده بهذه الجملة .

وكان يزورنى فى خلال ذلك هرشفرين وفراو برجمان . كما كان يسألنى هرشفرين كل مرة عن تطور العلاقات بينى وبين إيرينا ، فيسمع منى أنها على حالها . فيبدى دهشته ويقول لى : « إنها على العكس منك تماما . فهى تظهر لى إعجابها بك يوما عن يوم . »

وأخذت علاقتى فى غضون ذلك بالرسام كروزا تتوطد ، فصارحته بكل صغيرة وكبيرة . ولا أذكر أننا افترقنا ليلة واحدة . وزرته فى داره واستزرته . وبتنا أخوين رغم الفارق بيننا فى السن ، وفى كثير من العادات ووجهات النظر فى الحياة .

وذات يوم قالت لى إيرينا وكنا قد قطعنا شوطا كبيرا فى الكتاب ، وهى تودعنى إلى الباب : « أين تكون اليوم فى الساعة الخامسة ؟ »

« ليس لدى ما أصنعه . لم تسألينى ؟ هـــل من خدمة أستطيع أن أقدمها لك ؟ » .

قالت : « لا ، لا ، أشكرك ! إنما أردت أن أسأل كذا . » وترددت قليلا ثم قالت : « سأذهب اليوم إلى محل ـ كادى فى ـ لأشترى لى قبعة وبعض حاجيات أخرى . وكنت أحب أن أعمل دورة فى متنزه ـ تيرجارتن ـ فإذا لم يكن لديك مايمنعك ، وشئت أن تصطحبنى فسأنتظرك فى تمام الساعة الخامسة أمام الباب الكبير فى شارع تونقسن »

قلت : « بكل سرور ! »

التقينا فى الموعد المضروب ، وقطعنا شارع تونتسن حتى كنيسة جد شتنس ، ثم عطفنا على اليمين وسرنا نازلين حتى محطة تسو ، وهى تحدثنى ضاحكة عن مشترواتها من محل ـ كادى فى ـ

« ذهبت اليوم لأشترى لى قبعة ، فجربت عددا من القبعات ، ولم أجد واحدة بينها تتناسب مع رأسى . » وهنا أحمر وجهها ، وهى لاتزال تضحك . وتوقفت قليلا ، ثم استأنفت الحديث : « فذهبت بى البائعة إلى قسم الأطفال ، وهناك وجدت قبعة تليق بى . »

فرفعت نظرى إلى رأسها وتأملته لأول مرة ، فوجدت رأسا ووجها صغيرين عجيبين ، رأس طفل ، ووجه فتاة لم تشب بعد عن الطوق ، فاشتدت حمرة خديها ، وظللت أتأمل وجهها ورأسها بضع دقائق مندهشا أن تكون صاحبتهما فى الثلاثين من عمرها ، وعلى هذا القدر من الأدب والمعرفة .

فقالت وهى تبتسم : « ألم تكن رأيتنى بعد ؟ » .

« معذرة لا ! هذه هى أول مرة أراك فيها . »

« أنت رجل عجيب . »

قلت : « قولى رجل صريح » .

قالت : « وصريح » وتلعثم لسانها وهى تقول : « وهل أعجبتك ؟ »

« عفواً ! »

وكنا قد تغلغلنا فى متنزه ـ تيرجارتن ـ وكان الجو باردا رقيقا ، فمدت يدها فتأبطت ذراعى وقالت : « دعنى أتعلق بك . أعندك مانع ؟ » .

« عفوا »

« ما اسم هذه الشجر بالعربية ؟ »

قلت : « لا أدرى »

« وهذه ؟ »

« لاأدرى »

« وتلك ؟ »

« لاأدرى »

« وهذا الطائر ؟ »

« لا أدرى »

« أليس لديكم أشجار وطيور من هذه الأنواع ؟ »

« لدينا ، وأعرف للأسف أسماءها جميعا بالألمانية ، ولا أعرفها بالعربية . »

قالت ضاحكة وهى تهز رأسها شاكة فى كلامى : « أنت محب للمزاح عندك حق ، وماذا أستفيد من معرفة أسمائها بلغتك ؟ »

لقد ظنت الفتاة أنى أمزح ، وما قلت إلا حقا .

ثم رأيتها تشهق ، فتأخذ أنفاسا طويلة وتقول : « لقد ابتدأت تخرج الأشجار أوراقها . والأوراق الصغيرة الجديدة رائحة بديعة . أنا مغرمة باستنشاق أريجها . وأنت ؟ »

بهت لأنى لم أكن أعرف من قبل أن لأوراق الأشجار عند نبتها رائحة خاصة يتشمقها الناس . وشردت أفكارى قليلا ثم استدركت فقلت : « وأنا أحبها كذلك . »

وأخذت أشهق مثلها لأبرهن لها على قولى ، فابتدأت أشم الأوراق رائحة خاصة . وبالتدريج تنبهت فى حاسة الشم ، ورقت حواسى الخمس ، فحييت فترة مع الطبيعة . وتكشفت لى الحديقة الكبيرة التى كنت أتجول فيها كل يوم تقريبا عن آيات للجمال كنت عنها عمى

وقطعت على تأملاتى وإحساساتى الجميلة قائلة هل زرت حديقة الورد القائمة فى هذا المتنزه؟ لولا أن الوقت قد تأخر لزرناها الساعة، سنزورها معا مرة أخرى »

« نعم ، نعم ، لابد أن نزورها معا . »

واقترحت أن نعود إلى الدار . وفى عودتنا سمعت سيدة تسير مع طفلها فتنبهه إلى أسماء الأشجار والطيور ، وإلى مواطن الجمال ومواضع الحسن فى الطبيعة . فقلت فى نفسى :

أى إيرينا ! أنا جاهل ضال أجهل من هذا الطفل . أنا طالب علم ، أبحث طول حياتى عن معلم يرشدنى ويأخذ بيدى . لم يعلمنى أبى من أسماء الأشجار إلا الصفصاف ، والبلوط ، والجميز ، ومن الأزهار غير الورد ، والفل ، والياسمين . ومن الطيور غير الغراب ، والحمامة ، والببغاء . وما بقى من كل أولئك ، فشجر ، وزهر ، وعصافير . ولم يزد معلمى فى المدرسة على ماعلمنى أبى شيئا ، ولا فتقت كتب اللغة ذهنى . فكل اسم لشجر أو زهر أو طائر فى القاموس لم أجد عند شرحه أكثر من شجر معروف ، وزهر معروف ، وطائر معروف ، علمينى ، أرشدينى ، ولك المثوبة من رب المسلمين . ولا تكونى رقيقة معى - كما أنت - فى تلقينك العلم لى ، فليس هذا شأن المعلم عندنا . فلم ينس ظهرى مقرعة الشيخ فى المكتب ، ولانسيت يدى عصا أستاذ الخط فى المدرسة الابتدائية، ولانسيت أذنى سباب معلم الجغرافيا فى المدرسة الثانوية ، الذى اختصنى دون زملائى بهذه الجملة « **you silly creature** » اقسى علىّ يامعلمتى

أى ايرينا ! أنا جوعان ، محروم طول حياتى حتى فى أيام شبعى وريى . جوعان إلى الجمال ، ومواطنه ، وكشف أسراره ، وتذوقه ، محروم من عطف الأقرباء والأصدقاء والأحباء . وقد أسبغ الله عليك كثيرا من نعمه فعندك الزاد لهذه الروح الجائعة ، ولك قلب أسمع دقاته فى صدرك وأنت متأبطة

ذراعي قد ملىء بالعطف والحنان . ليتك تمسحين بيدك على رأسي وصدري ...

وخلصت يدها من ذراعي وهي تقول : « لقد أتعبتك »

« عفوا ! » .

آه ليس هـذا صحيحا . ومن قال ؟ ليس هذا من شيمة رقاق الأحساس تعلقي بي كما كنت ، والا تعلقت بك أنا . تلطفي معي ، لا تقسي علي ، إنني كالطفل اليتيم التائه في صحراء الحياة . . . وأنتفض مرة واحـدة في ثيابي وأخاطب نفسي مرة أخرى وبلهجة أخرى : عجيب هذا ! أأنقلب مرة واحـدة عاطفياً ، وضحكت ضحكة عالية .

فقالت : « ما يضحكك ؟ » .

« تذكرت ملحة من ملح مصر » وقصصت عليها ما حضرني .

وكنا قـد بلغنا محطـة تسو ، فاستأذنتها أن أشيعها إلى دارها ، إذا كانت معتزمة السير على الأقدام ، فرحبت . وأخذنا شارع كورفر ستتدام نازلين حتى بلغنا شارع بليبتروى . ولما بلغنا دارها ، اقترحت علي أن أشرب معها فنجانا من الشاى ! فلم أتردد لحظـة في القبول ، لأني كنت راغبا في البقاء بجوارها أقصى ما أستطيع ، ولا أدري ماذا كانت تكون عليه حالي ، لو أنها لم تتقدم بدعوتي .

وأخذت منذ ذلك اليوم أفكر في إيرينا ، في أدبها ، وفي كرمها ، وفي رقتها ، وفي جمالها . فشغلت وقتا كبيرا من فراغي . وساعد على ذلك اضطراب أعصابي ، فقـد أخذت تهيج علي يوما بعـد يوم ، حيث أوشكت نقودي على النفاد . ولم أعد أجـد حيلة للعمل . وإذا ثارت أعصاب الانسان اشتدت الحساسية فيه إلى حد كبير ، وأصبح ميالا إلى المبالغة والاغراق في كل ما يأتيه . فاذا أحب ، لم يعرف حبه حـدا ، وإذا أبغض ، كان بغضه مشوبا بالحقـد والحسد والمرارة ، فرأيتني أندفع إلى حب الفتاة اندفاعا لم أحسه في نفسي من قبل . وكلما سامت

حالى ، زدت بها هياما . وكان حبها كان العاصم لى من الجنون أو القضاء على نفسى ، لأنه شغلنى عن التفكير فى سوء حالى ، منعنى عن التفكير فى أى شىء عداها . وفى كل يوم كنت أكتشف فيها ناحية من الجمال جديدة كانت غائبة عنى . وابتدأ يقل إنتاجى الأدبى ، لأنى كنت أفضل قضاء الوقت معها فى السمر والحديث على قضائه فى العمل ، وغادرتها ظهر أحد الأيام على الرغم منى ، وأمضيت عصر ذلك اليوم فى قلق واضطراب . وفاض بى الوجد ، فتناولت ورقة ، وكتبت لها كتابا رقيقا ، شكرت لها فيه المجهود الذى تبذله معى فى كتابة الكتاب ، وشكرت لها كرمها ، ودرت ولففت حول شخصها ، وبطريقة لطيفة مقبولة وفقت فى كتابى لأطراء جمالها . وبعثت بكتابى هذا اليها بالبريد المستعجل . كان هذا الجواب ضروريا ، فقد خفف كثيرا من قلقى . وفى المساء ذهبت كعادتى إلى كروزا ، وقضيت معه سهرة مطمئنة .

ولما حل موعد الذهاب إلى إيرينا فى صباح اليوم التالى ذكرت كتابى الذى بعثت به اليها دون سبب مع أنى كنت معها قبل الظهر وسأراها فى الصباح ، والذى تنم عبارته رغم اللف والدوران والتحفظ على حب عميق لها فتولانى الخجل الشديد . فغالبت نفسى وذهبت اليها فى الموعد . ولم يكد يقع نظرى عليها حتى غطتنى موجة من الخجل لم أستطع معها أن أرفع رأسى اليها ، ولكنها كانت فتاة قوية . فلم تهتز لها يد . وبقيت طول الجلسة ثابتة كما كانت فى الجلسات السالفة لم يبد عليها أى تغيير . فأدهشنى منها هذا . وقلت فى نفسى ، لعل الجواب لم يصلها لأمر ما . واطمأن قلبى بعض الشىء وأخذت موجة الخجل تبتعد عنى شيئا فشيئا حتى امحت . وأصبح الجو بيننا صافيا . وعندما أردت الاستئذان ، خرجت معى كعادتها لتشيعنى إلى الباب الخارجى ، وقالت وهى تشد على يدى مودعة : « أشكرك ! لقد كان جوابك رقيقا ، رقيقا جدا . »

فكدت أسقط على الأرض لولا أن تمالكت نفسى . ولما ابتعدت بضعة أمتار عن الدار قلت فى صوت مسموع : هذه فتاة قوية ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

ولما جاء موعد الخطاب الذى بعثت لها به أمس لم أتمالك نفسى من كتابة كتاب جديد لها أصرح بعض الشىء من سابقه . ولما التقينا فى الصباح ، جرى بيننا تماما ماجرى بيننا أمس . وفى اليوم الثالث كتبت لها كذلك كتابا بحت لها فيه بحبى . وفى الصباح ترددت فى زيارتها . ولكن لواعج الهوى غلبتنى فذهبت إليها أتعثر فى طريق من الحياء ، ومثلت الفتاة دورها كذلك أروع من تمثيلها فى اليومين السابقين ، ولم يبد على وجهها أى أثر للارتباك والخجل وشكرت لى كتابى كذلك .

فقلت لها ورجلى فى الباب : « أليس لكتبى الثلاثة عندك رد ؟ »

فقالت وهى ضاحكة : « ليت لى أسلوبك ومقدرتك على الكتابة ! »

فتقهقرت خطوة وتحصنت وراء الباب وقلت لها وقد بدا شىء من الغضب على وجهى : « إذن أمسك علىّ قلمى »

« لا ؟ لا تصنع . إنى أجد سلوة ليس بعدها سلوة فى كتاباتك »

« هل لك أن تزورينى اليوم فى دارى لنشرب معاً فنجانا من الشاى ؟ »

« لا ، معذرة . فلم أزر فى حياتى أعزب فى غرفته . لا تحنق على أنا فى انتظار كتابك الليلة ، وفى انتظارك غدا . »

هذه الفتاة تلهو وتلعب بى ، كما تلهو الحسناء المحرومة المخدَّرة فى مصر بالخادم أو السقاء . تلين معه حتى يوشك الحبل بينهما أن ينقطع . وتتمنع وتشيح بوجهها حتى يرى النجوم أقرب إليه منها . وهى فى لينها إنما ترفه عن قلبها المعذب بالاسترسال معه باعتبار أنه أحد أفراد هذا الجنس الذى تشتهيه

وبنيها عليه وتمنعها إنما تمثل الطبقة التى تنتمى إليها . فكأنها تقول له أنت من طبقة أخرى دون طبقتى . فيخرج المسكين فى الحالين جريحا فى رجولته ، ذليلا مكسور الخاطر .

وهذه الفتاة كما أرى لاتعرف رجلا ، وقد نضجت أنوثتها ، وهى على علم تام بحالى ، فهى فى حاجة للترويح عن هذه الأحساسات المكبوتة لا أكثر ولا أقل . فهى تقربنى منها وتبعدنى عنها ، واجدة السلوى التى تنشدها فى اللعب على أعصابى . وشر الناس من وجد سلوته فى اللعب على أعصاب مريض . لن يغرنى بعد اليوم مظهرها الخارجى . فهى تحمل بين أضلاعها قلب ذئب . وخير لى أن أصفى معها حسابى .

وهل فى الطاقة ذلك ؟ يقولون إن حب الشباب كالنار فى الهشيم ويقولون إن حب الشيوخ أقوى وأمر من حب الشباب . أما حب المشردين فلم يقولوا لنا عنه شيئا . وحتى الكتاب الذين عاشوا عيشتهم لم ينورونا فى هذه الناحية ، وعندى أنه أقوى بكثير من هذين الحبين . هو حب من نوع آخر ، هو حب جياش بمختلف الأحساسات القوية المتفجرة من قرارة النفس لايمكن صدها ، ولاينضب معينها .

فالأحساس بالكرامة فى الحب عند المشرد ضرب من الكماليات ، وإذا تشبث الحبيب أو الحبيبة ، شيخا كان أو فتى ، بالكرامة فى الحب ، تصدعت أركان الحب .

والأحساس بالحرمان ، يدفع بصاحبه إلى الجرأة والتهور . مما يتهيبه الممتلىء ، وهل يكون الحب حبا إذا لم تشبه المغامرات . وإذا لم يتصف صاحبه بالقوة والاستهتار .

وأخيرا فطعم الحنو والعطف والحب فى فم المحروم غيره فى

فم الذى يتمرغ كل يوم فى حب جديد وبين ذراعى حب جديد .

وأنا مشرد متشرد محب . فهل فى الطاقة أن أصفى الحساب مع إيرينا بهذه السرعة ؟ لا أظن . . .

تحرج المال

نحن الآن فى الأسبوع الأخير من شهر إبريل . ولم يبق من المال الذى كسبته من التمثيل فى استديو أوفا غير بضعة ماركات لا تتجاوز العشرين ماركا تكفى بالكاد للغذاء الضرورى حتى نهاية الشهر . وقريبا يحل أول مايو ، ويستحق كراء الغرفة ، ولا مفر من دفعه أو تأجيله . ولم تظهر لى بارقة رجاء فى سماء العمل ، ولا نجح مسعاى مع الحكومة الألمانية . وقد قصرت جهودى فى المدة الفائتة على إنجاز كتابى . وشغلتنى إيرينا بالتفكير فيها ، وكتابة كتاب لها كل يوم دون أن أتلقى منها رداً . وتعودت هذا منها ، فلم أعد أجد فيه ما يمس الكرامة أو يخجل . لقد انحدرت ، وأسففت ولم يبق ورائى إلا خطوة واحدة اذا تقهقرتها ، فسأهبط حيث لا أستطيع النهوض ، ولا يستطيع أحد أن يأخذ بيدى . وارتسمت آيات الحزن والأسى على وجهى ، وظهرت تجعدات على جبينى لم يكن لها أثر فيه من قبل . واشتدت عصبيتى ، ولم أعد أطيق الجلوس وحدى لحظة واحدة . يالهول النكبة ، ويا لسوء الخاتمة ! !

فاضطررت للتردد على الرسام كروزا فى ساعات فراغى ، فكنت أجده وراءه فى كل مكان ، فى الدار وفى المنتزهات ، وفى مقهى تسونز ، وعند أصدقائه .

وكروزا هذا فتى ثائر على الحياة ، مرور من الناس ، ناقم على كل شىء ، يكره النظام والطاعة ، محب المعارضة ، كسول رغم مواهبه ، يعيش عيشة بؤس ، لا يكاد يحصل على رزقه اليومى إلا بالكاد لولا مساعدة والديه له ، هو أقرب

للمتشردين منه للرجال العاديين . لم يكن يشكو مرضا فى عضو من أعضائه ، ولكنه كان يشكو الزمن ، الزمن الذى نعيش فيه . مثله مثل كثيرين من شباب الجيل الحاضر ثمرة الحرب العظمى ، ممن ورثوا الخبل أو ضعف الأعصاب عن آبائهم ، كان يتحطم على مرارة الحياة ، دون أن يبذل أى مجهود لحماية نفسه . وإن أنس لا أنسى الألم الذى كان يصيب نفسى وهو يلوى شدقيه يائسا ليجيبنى بجوابه المشهور كلما حثثته على العمل : « ماذا ؟ لافائدة البتة ، وما هى النتيجة التى تعود علىّ إذا بذلت شيئا من القوة التى أملكها » .

لماذا كنت أبحث عن هذا الفتى ، وأسكن إليه ، وهو على ماوصفته لك ، لا أدرى .

قلت له وقد اصطحبنى ذات مساء إلى باب دارى ، ولم يبق على أول الشهر غير ثلاثة أيام : « هل تحب أن تصعد معى إلى غرفتى . إنى بت أخافها وأخاف سريرى . ولا أحب أن أطالع الليلة » .

قال : « إنى أتحرق شوقا للتحدث الليلة مع رجل معقول مثلك . تعال ! » وتأبط ذراعى .

دخلت الغرفة ، وأشعلت النور ، فخلص يده من يدى ، وتقدم خطوة ووقف أمامى يتأملنى لحظة ، وقال : « إن صحتك تبدو متأخرة ، لا أدرى أحب جديد ؟ إذا كان الأمر كذلك فأنى أنصحك للمرة المائة أن تغسل يديك من المرأة ، فالظاهر إن صحبتها لا توافق صحتك »

« استمع إلى يا كروزا ، إن كاس أحزانى . . . »

فقاطعنى الفتى : « ولكن قل لى ، مالى أراك اليوم حزينا متشائما . ألم تر عروسك الجديدة ؟ اختصر ولا بأس عليك » .

« لا ، ياعزيزى ، ليس فى الأمر عرائس ، ولا لدى عروس ، ولكن لدى هموما جساما . . .

وفجأة أصغى إلى شولتسا بشغف واهتمام ، وقد أجابنى على كلامى بكلام معقول نوعا ما : « كذا ، أنت مضطر لترك غرفتك ، ولا مال لديك . هذا ما يحدث لكثير من الناس . ولا محل للهلع والتشاؤم . ألم تسمع فى حياتك عن الملاجىء ؟ تستطيع أن تنزل فى أحدها ضيفا لمدة أربعين يوما فى كل وقت . والملاجىء فى ألمانيا نظيفة دون شك . وإداراتها تعطى نزلاءها فى الصباح وفى المساء شرابا ساخنا بالمجان . وفيها دفء فى الشتاء . وأنت كصحفى يجب أن تشكر الأقدار التى هيأت لك هذه الفرصة الثمينة . فملاجىء المشردين والمتشردين يمكن أن تكون كنزاً لرجل مثلك يسير فى الحياة بعين مفتوحة . فسيكون وصفك لها أصدق وأكمل من وصف السادة الأنيقين من الكتاب الذين يدخلونها متأففين لمجرد المشاهدة ، فلا يحسون إحساسك ، ولا يدركون نفسية نزلائها كما ستفهمها . وأنا واثق أنه سيكون لكتابتك عنها شأن . فشتان بين زائر شبعان أعمى يقضى فيها بضع دقائق ، وبين نزيل جائع لا يجد سقفا يحميه ، وبينه وبين نزلائها صلات . »

ملاجىء المشردين والمتشردين ! هذه هى الخاتمة . وماهى الضرورة الملحة التى تضطرنى لأن أمد فى حياتى أربعين يوما أخرى ؟ لا ، إن الموت خير من الأقامة فى هذه الحظيرة . وبدأ الاشمئزاز على وجهى وتقززت من كل شىء حتى من نفسى أنا ، وقلت له : « اصغ إلى ياشولتسا . هذا مستحيل ! فماذا عساى أن أصنع بعد انقضاء الأربعين يوما وليلة . كل همى فى أثناء الأقامة فيها أنى سأحسب الأيام يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة . كما يحسب المحكوم عليه الأيام الباقية له فى الحياة . بقى ثلاثون ، بقى عشرون ، لايزال أحد عشر يوما . »

« ولكن ليس الأمر كما فهمت يارجل ! فإذا ماقضيت أربعين يوما فى أحد هذه الملاجىء ، أمكنك أن تتحول إلى غيره وتبقى فيه أربعين يوما أخرى ، وهكذا حتى تصطلح أمورك . وفى براين على ما أظن ٣٦ ملجأ أو نزل من هذا النوع . فلا تترك نفسك يقتلها الجزع . كنت أود أن أستضيفك عندى ، ولكن المكان ضيق . وسيتعثر فيك أهل الدار . على أية حال لدينا وقت للتفكير . فلك حق الاقامة فى غرفتك غداً وبعد غد . وسأتكفل بطعامك فيهما . العجوز (يقصد أمه) تترك فى المطبخ كل ليلة شيئا من الطعام والحلوى لمن يتأخر من العائلة ويكون جائعا . وسأقوم بغارة ليلية على المطبخ وأسرق لك أطيب الموجود . وأقترح الآن أن نتريض قليلا لنبرد ثورة رءوسنا — فهذا مفيد لكلينا »

وكانت الشوارع تعج بالسابلة فى هذه الساعة . فأخذنا طريقنا إلى ميدان پوتسدام نسير الهوينا . وكان الفتى معروفا لكثيرين فما كنا نسير بضعة أمتار حتى يحييه بعض المارة . فكان حب التشوف والاستطلاع يدفعنى للسؤال عن هذا السيد أو تلك السيدة فكان يقول : « هذا صديق الدراسة وتلك زميلة . »

وسألته عن بعضهم ، فقال : « هذا زميل لك »

« تعنى صحفيا ؟ »

فأظهر تعجبه : لا ، وأية علاقة لى بهؤلاء المهرجين الذين يكتبون مقالاتهم بريش الغربان ، ويحبرونها بمداد القار . هذا مشرد لامأوى له مثلك . »

« حسبك وكفى ! أريد أن تضع حداً لهذه النكات السخيفة . ليس فى طاقة الانسان أن يملك نفسه فى كل وقت .

« اتفقنا ! وسأضع حداً لنكاتى السخيفة أيها الصديق المحترم، بمجرد أن تضع أنت حدا لفقرك الملح . »

ماذا عساى أن أصنع بهذا الفتى الجرىء !

« قل لى ياشولتسا ، من أين لك هذه الخبرة الواسعة بحياة الملاجىء ومحلاتها ؟ هذا مايترك فى نفس محدثك مجالا للحدس والتخمين »

فلم يأبه لمهاجمتى له وقال جادا : « جانب منها يرجع لتحقيق تخميناتك ، وجانب منها يرجع إلى قراءاتى . فمن من الأدباء لم يقرأ (الملجأ الليلى) لجوركى ؟ ألم تقرأه ؟ إذا لم تكن قرأته ، فأنى أوصيك بقراءته . عدا هذا فانى قد اشتغلت فى أحدها أياما لرسم صورة لنزلائه . وكم كنت أتمنى أن تكون صورتك بين صور المتشردين الذين رسمتهم يصطلون النار ويحتسون المرق ! ! »

« أشكرك ! إذن أنت تعدنى متشرداً ؟ »

« أستغفر الله ، بل ملك المتشردين . » وضحك

عجيب أمر هذا الفتى ، فقد أنعشنى تحديه بعض الشىء كما طردت سخريته الهموم فى الوقت الحاضر . ولعل هذا يرجع لطبيعة العناد التى فطرت عليها . فوجدت فى نفسى ميلا لمنازلته ، واشتدت فىّ رغبة الهجوم . لقد أثارنى شولتسا ، فأحببت بدورى أن أخرجه من هدوئه ، وكنا على مقربة من دكانة للصور ، فأشرت إلى صورة فى واجهة الدكان وقلت له : « أتعجبك هذه الصورة ؟ »

فتحمس قائلا : « بديعة هذه الصورة . هذا هو ما أتصوره من الرسم بمجرد ما أخرج من ورطتى التى أنا فيها سأحاول رسم مثلها أو أحسن منها .. ! »

فقلت له : « الرسام المشهور جوردن الذى تعرفت به عند الرسام العالمى شتين متحمس لدقة الأبعاد ، وترتيب الألوان فى هذه الصورة »

« مشهور ! عالمى ! مشهور فى أحد الصالونات أو فى غرفة خلفية ، وعالمى عند مهرجى الصحفيين . »

فمررت على كلماته مر الكرام وسألته : « وما رأيك فى هر شتين ؟ ألم يحز نجاحا فى معرضه الدولى الذى أقامه أخيرا فى برلين ؟ أوما زال تنكر هذا أيضا ؟ . »

« معرض ! إذا علق أحدهم ست سبع صور فى غرفة كبيرة دعا الناس هذا معرضا فى أيامنا هذه . وإذا خربش بضعة أشخاص منكم أيها الصحفيون ممن لا دراية لهم بالألوان بضع كلمات معروفة دعوا ذلك معرضا دوليا . »

فاستأنفت أسالتى ببرود : « وما رأيك فى زيجل ؟ هذا الرجل لابد أنه يعرف شيئا عن الفن . لا لأنه أستاذك ، بل لأنى عندما تعرفت به عند الرسام شتين سألته عنه فقال لى إنه حجة ثقة ، أليس فى شهادة زميل شهير له ما يكفى ؟ »

« أراك دائما تنبش قبور العجائز ، الذين يسلبوننا النور نحن الشباب . الدور علينا اليوم . وسنرى العالم مقدرتنا . ولكن إذا ظللتم تعطون الكلمة للعجائز ، فسيهدأ الفن . زيجل على شىء . ولكن لكل واحد زمانه فاليوم لنا ، ومن حقنا وحدنا . »

« آه ، انظر هناك إلى تلك الصورة ؛ إن الألوان لتضيء فيها . أما الخطوط فتبدو نغمة بحق ، ألا تجد معى ذلك ؟ » .

« نعم ، نعم ، ألف كلمة وكلمة من كلمات الفن تحفظونها عن الألوان والخطوط وتلوكونها أيها الصحفيون دون أن تفقهوا لها معنى . »

وأبيت إلا أن أخرجه عن طوره : « اسمع يا صديق العزيز ، صورتك الأخيرة . . . . رأيى فيها أن الابعاد تحتاج إلى إدخال بعض التعديل عليها . . . »

فقاطعنى شولتسا ثائرا . « نعم ، نعم ، تريد أن تنتقد رسمى ؟ لابد لى أن أضحك . لقد أمسكت لسانى طول الوقت ، إلا أنه قد حان الكلام ، فكم من

مرة أحببت أن أوصيك بزيارة مدرسة الصحافة ، إذا كانت هناك مدرسة لها . »

وقبل أن أتمكن من الرد على كلمته الطائشة كان قد فر من أمامي مبتعداً عني ، قاطعا الطريق إلى الجهة المقابلة ، ولكنه لم يستطع الابتعاد كثيرا ، فقد أوقفه مصباح المرور حيث تغيرت ألوانه من أصفر إلى أحمر . وإلى أن أذن للمارة باستئناف السير كنت قد لحقته .

وتفاهمنا معا ثم أوصلني إلى الدار بعد أن تريضنا قليلا . فوجدت على المائدة في غرفتي كتابا من هرشفرين يقول فيه : إنه زارني في المساء برفقة صديقته السيدة إرما براندت بمناسبة سفره الفجائي الليلة ، وإنه يرجو أن أتصل بصديقته في مدة سفره . وذكر عنوانها ورقم تليفونها . الخ . الخ . . .

ونمت في هذه الليلة نوما عميقا ، ولم أصح إلا في الصباح المتأخر وشولتسا يفتح الباب وبيده حزمة وهو يقول : « لم تنهض من فراشك بعد ؟ إليك نتيجة جولتي الليلية . » ووضع الحزمة على المائدة ، واستأنف الحديث : « قم واصنع لنا شايا ، فأنا أفضله في الصباح على القهوة . اتصلت أمس بالتليفون بعد أن تركتك بأحدى معارفي ، زميلة لي مثالة . وحاولت أن أجد لك مأوى عندها ، فهي تسكن وحدها خارج المدينة في مسكن يتألف من ثلاث غرف . وكدت أنجح ، فبعد أن قبلت ، عادت وتراجعت بدعوى أنك رجل ، وأنها تخشى البقاء وحدها في الدار مع هذا الجنس الخشن . ولكن لا بد أنا واجدون منفذا حتى غد . أسرع بتهيئة الشاي ، قبل الشروع في عمل التواليت . . . . »

وجلسنا قبالة بعضنا ، وفتح الحزمة ، وتناولنا منها طعام الفطور مما اختلسه من داره . وشربنا الشاي الذي كان يعجب بطهي له وقتلنا موضوع كراء الغرفة بحثا ، لأنه كان مقدما على غيره ، فلم نجد له حلا . وأخيرا استأذن في الانصراف على أن يعود في المساء لاستكمال بحث الحالة العامة من جميع نواحيها .

وأخذتني سنة من النوم أشبه بنوم الوسيط ، فبقيت جامدا مكاني . وطغى العقل الباطن على العقل الواعي فبت أرى رؤى لا تشاؤم فيها ، أقرب لما يراه الإنسان في اليقظة منه في المنام . وتنبهت وساعة الحائط تدق عشرا ، فتثاءبت وتمطيت وأخذت طريق إلى إيرينا .

حدثتها بكتاب هرشفرين ، وسألتها عما إذا كانت تعرف شيئا عن رحلته ، فأجابت بالنفي . وانقضت مدة الأملاء والكتابة عندها كما انقضى غيرها في الأيام السابقة ، إلا أنها في هذه المرة سألتني باهتمام ملحوظ عن حالي فأجبتها دون تفكير : « على أسوأ ما يكون . » وأشرت بأصبعي إلى فمي وقلت : « لقد بلغ السوء الحلقوم » . ولم أزد حرفا واحدا .

فقالت : « وهل أستطيع أن أساعدك بشيء ؟ »

« أشكرك . لن يستطيع أحد مساعدتي »

فبدأ التأثر على وجهها ، ولم تقل شيئا .

والتقيت في المساء بشولتسا ، وحدثني أن أمه تفقدت الطعام في الصباح فلم تجده ، وأن أحد أخوته احتج عليها لأنه عند عودته متأخرا من عمله لم يجد في المطبخ ما يأكله وكان جائعا . . . وأنه كان يخشى أن يعثروا بالحزمة في غرفته . ولكنه أنقذ الموقف هذه المرة وقال لها وله ، لابد أن القط أكله ، فقالت له أمه أي قط ؟ وليس لدينا قطط في الدار ، فقال لها القط الأسود الكبير ، قط الجيران ، فكثيرا ما ألقاه في الليل يروح ويجيء بين الدارين . . . وضحك شولتسا وقال :

« أنت من الآن القط الأسود الكبير ، قط الجيران ، لا تنس هذا . . . المهم أنك أكلت ، وأنها اقتنعت . إنها تقول أنها ستحتاط الليلة من القط الأسود ولكنها لن تستطيع أن تحتاط مني . »

« أرجوك أن لا تكرر هذه العملية مرة أخرى . أنا لم أوافق ولا أوافق على ذلك . »

« هل تريد أن تقلد مكسويني ؟ نحن ياعزيزى فى برلين ، ولسنا فى مقاطعة يورك ، والآخر كان محافظا ، وأنت غريب شريد لن يأبه لك أحد ، وحتى الصحفيين زملاءك سيضنون عليك بكلمة فى صحفهم . »

وأخذ صحيفة المساء وأخذ يتصفحها . وفجأة تقع الصحيفة من يده ، وينهض مذعوراً من مكانه .

« اسمع ! اسمع ! هل قرأت هذا الخبر ؟ هرشفرين انتحر ليلة أمس فى أحد الفنادق . مسكين هذا الرجل ! هأنتذا قد فقدت صديقا ، وما أقل أصدقاءك ! »

« أتم قراءة الخبر أو هات الصحيفة . »

فناولنى إياها وهو يقول : « لا شيء بها أكثر من ذلك . »

« مسكين هرشفرين ، لم يكن رجل أعمال ! ولا أدرى كيف نجح يوما فى حياته . إنه عاش شاعرا ومات شاعرا . »

«ماذا تعنى ؟ أو كنت تظن أحداً يطيق الحياة مع هذه العجوز الملعونة صاحبة القصر ، يريق ماء رجولته كل يوم بأشعال البخور لها ، والثناء عليها — كل ذلك نظير الطعام والمسكن ؟ لقد أتى صوابا . »

« لا تجر يا صديقى وراء إحساساتك . أنت تعرف وجهة نظرى فى الحياة . وأن الحياة تستحق العيش مها كلف العيش الانسان . »

وخطر لى أن أتصل بصديقة هر شفرين السيدة إرما برندت التى زارتنى معه ليلة وفاته لأسألها شيئا عن تفصيلات هذا الحادث ، فلا بد أن تعرف شيئا عنه فقد كانت معه قبل أن يغادر الحياة بساعات بل ربما بدقائق . وقمت فى الحال بتنفيذ هذا الخاطر فدعوتها على التليفون ، فعلمت منها أنها قرأت عن وفاة

صديقها فى الصحف مثلى . وأنه كان معها حتى الساعة التاسعة مساء ولم يقل شيئاً عن عزمه ، ولا لحظت شيئا غير عادى عليه . ورجتنى أن أمر عليها فى أقرب فرصة تناسبنى . ثم ختمت كلامها معلقة على الحادث لقد قتلته العجوز صاحبة القصر بما كانت تفرضه عليه من الواجبات التى ينوء بها كل رجل حر . . .

وقطعت مع شولتسا جانبا من الوقت فى الحديث عن هذا وذاك ثم استأذن بعد أن قال لى :

« انتظرنى فى الصباح لنشرب الشاى معاً . »

ونسيت مشاكلى ، وبقيت طول الليل أفكر فى هرشفرين وفى خاتمته السيئة ، وأخمن فى الطريقة التى انتحر بها ، وأتساءل عما إذا كانت هناك أسباب جديدة دعت لانتحاره . وما إذا كان فى طاقة رجل مثلى أن يتحمل الحياة مع صاحبة « القصر المنيف » تحت الشروط والفروض والقيود التى وضعتها. فرأيت انه يستحيل العيش على رجل حر يفرض عليه الشكر فرضاً ولو لساعة واحدة . إذن عند الرجل حق أن يتخلص من الحياة . وأعود فأقول ، لا ، كان فى مكنته أن يرفض تناول الأحسان من فرد ، وأن يلجأ إلى إحسان الجماعة ، إن كان لابد من تناول الأحسان ، فثم محلات لأعانة العاطلين ، والمعوزين ، والمتقدمين فى السن ، وما عليه إلا أن يقيد اسمه فيها فيفرض له مرتب شهرى يعيش منه عيشة الكفاف حتى يجد له مخرجا من ورطته . . . ثم أعتذر عن فعلته بأن الرجل قد اختلت أعصابه فى الأيام الأخيرة ، فضعفت فيه روح المقاومة فأقدم على ما أقدم عليه . وهكذا بت طول الليل أناقش نفسى بشأنه وأرد عليها حتى انبلج الصباح فنهضت أطالع الصحف على أجد بعض التفصيلات عن وفاته فلم أجد شيئا .

ولم يمض كثير من الزمن حتى جاء هر شولتسا متأبطاً حزمته . وقال :

« قم واطه لنا شايك ، لقـــد بكرت حتى لا أصطدم بالعجوز فأضطر للكذب على القط الأسود ، أو الكلب الابيض ، أو اللص الملثم ، لا أدرى ... المهم أنك تأكل لتعيش مادامت هذه رغبتك . »

وبعد الأفطار بدأ شولتسا الحديث قال : « زيد أن نكون عمليين . قل لى هل تتوقع وظيفة فى ألمانيا أو عملا حراً فيها ؟ »

« لا ، فالدولة قد فصلتنى من عملى ، وأبت على العمل لامور لاتزال مجهولة لى ، وجربت حظى فى الأعمال اليدوية وغيرها فلم أفلح . والعمل الحر يحتاج إلى رأسمال ، وليس لدى مال . »

« هل تنتظر مساعدة من مصر ، من أهلك ، أو من أصدقائك ، أو من الجماعة التى كنت تعمل معها سياسيا أو من الخارج ؟ »

« لا ! » ولم أزد على ذلك حرفاً ، فقد ارتعدت فرائصى لسؤاله .

« هل لديك مشروع يدر ربحاً ، أو فكرة صالحة للاستثمار يمكن أن تعرضها على أحد الماليين ؟ »

« لا ! »

« أتؤمن بالعجائب ؟ »

« لا ! »

« أجبان أنت ؟ »

« لا ، ولا أعرف فى نفسى هذا الخصلة ! »

« إذن فيم حياتك ؟ ولم تحمل كل هذه الآلام ؟ لم لاتقتل نفسك فتريح وتستريح ؟ »

فترة صمت طويلة عميقة كلها أسى وألم ومرارة وحقد . لقد عرف الفتى كيف يخرس لسانى ويحرك عقارب الضغينة والثورة فى نفسى .

وأسمع طرقا على الباب .

« تفضل ! »

فتدخل صاحبة الدار : « لك خطاب موصى عليه مع ساعى البريد ، وهو فى انتظارك فى الردهة . »

لى أنا؟ ممن يكون ؟ لعله أخطأ ؟ ولأى سبب موصى عليه ؟

وتخرج ، وأخرج وراءها فيبدأنى الساعى بالسلام ، ويقدم لى ايصالا وقلما رصاصا ، فأتحقق من الاسم والعنوان فأجدهما صحيحين ، فأمضى وأستلم الكتاب وأعود إلى غرفتى ، وأفتحه فأذهل ، ورقة من ذات المائة مارك طى كتاب طويل مكتوب بخط اليد بحروف غليظة ، كأن كاتبه استعار قلما من (الغاب) بدل الريشة ، جاء فيه :

السيد . . . . . .

لانشك أن نبأ وفاة المرحوم هر شفرين قد بلغك ، وأنه قد ترك فى نفسك أشد الأثر ، فكثيرا ما كان يفاخر بصداقتك له على قرب عهدها

وقد وجد بين مخلفاته كتاب لى أوصانى فيه بتقديم بعض هدايا لأصدقائه الأعزاء كتذكار منه لهم . وكان اسمك طبعا بينهم .

ولما كنت أجهل نوع التذكار الذى تفضله ، رأيت أن أترك لك اختياره ، وأرسلت لكم مع هذا مائة مارك لهذا الغرض .

هذا وأرجوكم أن تتفضلوا بقبول هذا المبلغ الصغير احتراما لوصية الفقيد.

وتقبلوا . . . ألخ

فكتور شراير

صفق شولتسا على كفيه ، وانتفض واقفا وكأنه لم يصدق أذنيه ، وانقض على الكتاب يقرأه ، وعلى الورقة المالية يفحصها كأنه شاك فيها ثم قال : « ان

الأقدار تداعبك ، وتعبث بك ، تمطيك كلما أشرفت على الهلاك ، ولكن بقدر ، تمطيك حقنة كافور لتمد فى شقائك أسابيع ، أو لعل لها حكمة أخرى خفيت عنا ، فهى تصقلك لأمور فى علمها قد وقع اختيارها عليك لتحقيقها ، نعم هى الأقدار ، صدق أو لا تصدق ! هذا ما أؤكده ولا أتزحزح عنه قيد أنملة ، وإلا قل لى ، كيف يصادف انتحار هرشفرين آخر الشهر عندما تنفد نقودك ، ويستحق كراء الغرفة ، وتنقطع جميع الموارد وتتحرج الحال ؟ هبك قرأت قصة كهذه قد أحكم المؤلف حوادثها على هذا النسق الذى مر بك ، أما كنت تقول هذا مستحيل ، هذا خيال رخيص : ما أسخف القصة وأسخف كاتبها ! ! أصبح القدر فى قصتك من أولها إلى آخرها . . . . على أية حال قد انفرجت ازمتك فادفع كراء الغرفة التى شغلتنا التفكير فى تدبيره عما سواه ، واستروح لك بضعة أيام من عناء الأيام السالفة . . . وما أحوجك للراحة ! ! »

لم أعر هـــذه الخطبة شيئا من التفاتى ، لأنى كنت فى شغل عنها وعن صاحبها بصاحب الكتاب ، وساورتنى شكوك فيه لا أدرى مبعثها . فقلت لشولتسا : «أرجو أن تساعدنى على كشف فكتور شراير هذا تعال معى إلى مصلحة البريد . »

وهناك بحثنا فى دفترى التليفون والدليل عن هذا الاسم ، فلم نجد له أثرا ، فاتصلت بصاحبة القصر المنيف وبجميع معارف هر شفرين وأهله فلم أهتد لصاحب الكتاب . . .

إن فى الأمر سرا ، لابد من اكتشافه ، ولكن كيف السبيل ؟ .

وذهبت كعادتى إلى إبرينا وحدثتها بقصة الكتاب والنقود وصاحبهما المجهول فقالت : « ولماذا تبحث عن المرسل ؟ . »

« لأرد اليه مبلغه . »

« لقد كان هر شفرين يحبك ويقدرك ، ولا أشك فى أنه هو الذى اختار

هذه الطريقة فى توصيل هذا المبلغ اليك ، وإرادة الميت يجب أن تحترم ، فلا تكن قاسيا على روح الفقيد ، وليس فى الأمر ما يريب ، ولا فيه شيء غريب فكثيرا ما يحدث مثل هذا فى ألمانيا ... »

وبدا فى عينيها نوع من التوسل لأقبل المبلغ ، حملته على حبها للفقيد ، وأنها لا تريد إغضاب روحه فى قبره ، ولما كانت حاجتى ملحة ولم أستطع الوصول إلى المرسل ، فلم يبق أمامى بد من قبول هذه الهدية العظيمة التى جاءت فى وقتها والتصرف فيها حتى ينكشف لى سرها ، إذا كان هناك سر . . . »

مدرس خصوصى

برلين تعج منذ الصباح الباكر بالناس ، على الرغم من إغلاق الحوانيت بأمر الحكومة . والأعلام تزين واجهات الدكاكين وشرفات الدور . ومكبرات الصوت قائمة فى المنتزهات والميادين . ونواصى الشوارع على بعد عشرات الأمتار من بعضها . والأطفال والرجال والنساء متجمعون فى صفوف متكاثفة على جانبى الطريق ، ورجال حزب النازى يسيرون هنا وهناك يشرفون على النظام ، وجماعات العمال تسير جماعة جماعة تحمل أعلامها وموسيقاها وشاراتها لتتجمع للسير فى الموكب العام . اليوم أول مايو ، عيد العمال الدولى . وكل ذلك احتفال بهذا العيد . فشققت طريق وسط هذا الزحام بمشقة إلى دار إيرينا .

قالت لى فى فترة الاستراحة من الاملاء والكتابة : « هل فكرت فى إعطاء دروس عربية ؟ أنى أظن أن الأقبال عليها سيكون عظيما بسبب ازدياد هجرة اليهود إلى فلسطين فى هذه الأيام . »

قلت : « نعم ، ولكنى لم أفكر بعد فى الطريق الموصل إلى ذلك . »

وفى اليوم التالى قالت لى : « كنت قد كتبت بضع مقالات لجريدة « يدشى روندشاو » التى يصدرها اليهود فى برلين مرتين فى الاسبوع ، وذهبت أمس لاستلام الأجر ، فدفعوا لى فيها مبلغا ضئيلا ، يخجل الإنسان أن يذكره ، واعتذروا بسوء حال الجريدة ، وأنهم على استعداد لتعويضى بتقديم بعض الخدمات لى كنشر إعلان بالمجان أو أية خدمة أخرى ، فلم أر بدأ من القبول . وخطر لى أن أستغل الموقف فى الحال قبل أن يمضى عليه بعض الوقت فيضعف حقى فى المطالبة به ، وأعطيتهم إعلانا لنشره خمس مرات متوالية هذا نصه : صحفى مصرى ، أستاذ سابقا بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة برلين ، يعطى دروسا خصوصيه فى اللغة العربية . تليفون رقم . . الخ . الخ . فليتك تقبل منى هذه الهدية البسيطة التى لم تكلفنى شيئا ! ! ولعلى لم أخطىء فى تصرفى هذا قبل استشارتك ! ! »

فشككت فى قصتها ، وخشيت أن تكون من نسج خيالها ، وأنها تريد بذلك أن تسدى إلى يداً ، وفى الوقت نفسه أثر فى نفسى اهتمامها بشأنى ، فقلت لها وأنا أحدق فى وجهها : « لا بأس إذا كانت القصة كما ذكرت ، وإلا فاسمحى لى أن أدفع أجر الأعلان ؟ »

قالت : « صدقنى ، هذا ماحدث ، ولا أستطيع أن أتناول أجرا على شىء لم أدفع فيه فلسا واحدا . وأشير عليك أن تنشر إعلانا مماثلا فى إحدى الصحف اليومية فى عدد يوم الأحد . فالأعلانات المبوبة تقرأ عادة فى هذا اليوم . فربما تتلمذ عليك فتصل أو مستشرق قد ينفعك فى ورطتك »

« حسنا . أشكرك ! وسأفعل ذلك . »

وانقضى يومان على نشر الإعلان فى جريدة « يدشى روندشاو » ولم

يتقدم طالب لى ، وفى اليوم الثالث دعيت على التليفون .

« من المتكلم ؟ »

« هنا الدكتور باب طبيب العيون ، قرأت إعلانكم فى جريدة ـ يديشى روندشاو ـ وأحب أن آخذ درسا عليكم ، ولكن وقتى لايسمح بالحضور إليكم ، فهل عندكم مانع من الحضور إلى بيتى فى ميدان أليفر رقم ٤ فى الطابق الثانى فى الساعة الثامنة مساء ؟ »

« لا مانع عندى ، أرجو أن تنتظرنى فى الموعد الذى حددتموه . »

لقد غمزت الصنارة !

والدكتور باب رجل طويل القامة ، أشقر اللون ، كث الشعر ، يجيد عدة لغات ، وهو مغرم بالأدب ، استقبلنى فى مكتبه ، وسألنى :

« هل كنت استاذا للغة العربية فى . . . ؟ الخ . »

« نعم ! »

« ولماذا تركت العمل ؟ »

« لظروف خاصة . »

« كم تطلب فى الساعة ؟ »

« ثلاثة ماركات فى دارى ، وخمسة خارج الدار . »

« أمصرى أنت ؟ »

« نعم »

« معذرة ، هل تستطيع أن تثبت ذلك ؟ »

ليت شعرى ما السر فى هذا السؤال ! وكيف أثبت له هذا ، وأنا لا أحمل جوازا مصريا ، ولا تعترف بى السفارة المصرية . كيف أثبت لهذا الرجل مصريتى وأنا مسلوبها . ترى أتظل هذه الجنسية عقبة فى طريقى حتى فى الحصول

obeikandl.com

على الخبز اليومى ؟ فلا كتب ، ولأغالط حتى أحصل على هذا الدرس، فالصدق مهلك لا محالة فى هذه الحال . فالتفت إليه وقلت له فى شكل الذى مست كرامته: « ماهذا يا جناب الدكتور ؟ أفى البوليس أنا حتى تستنطقنى كذا ؟ »

« معذرة ! لابد لى من التثبت من ذلك قبل الاتفاق على الدرس . »

فقلت له ساخرا : « صدق أو لا تصدق . ولك أن تتفق على الدرس أولا تتفق . على أيه حال تأبى كرامتى أن يوقفنى تلميذى موقف الشك . »

فضحك الدكتور قائلا : « لو عرفت السبب لعذرتنى . اعتزمت منذ شهور تعلم اللغة العربية ، لأن فى نيتى الهجرة إلى فلسطين ، فأعلنت عن طلب معلم عربى ، فجاءنى بعضهم . وأعطانى عشرة دروس وأرسلت لابن أخى فى بيت المقدس ليرسل إلى كتابا فى المطالعة العربية ، فبعث لى بكتاب ابتدائى ، فلم أفهم فيه شيئا فأريته لمعلمى ، وطلبت إليه أن نستعمله بقدر الامكان ، طالما لا توجد كتب أخرى تفى بهذا الغرض :

قلب فيه المعلم بضع صفحات . وقال : « ولكن هذا الكتاب عربى » .

قلت : « نعم وقد أحضرته خصيصا لذلك » .

قال : « ولكنى لا أعرف العربية » .

فكدت أذهل ، وكذبت أذنى فسألته : « وماذا تعلمنى إذن ؟ » .

قال : « اللغة الأيرانية وأنا إيرانى . »

قلت مندهشا : « ولكنى لم أطلب منك ذلك ولا ذكرت الأيرانية فى إعلانى. »

قال فى جرأة : « وأى ضرر عليك فى هذا . أليست اللغة الأيرانية لغة شرقية كاللغة العربية ؟ » .

« فآليت على نفسى منذ ذلك اليوم أن أطلب من معلمى الجديد أن يبرهن قبل كل شىء على جنسيته ، فأنى لا أريد أن أتعلم هذه المرة الأفغانية أو لغة

أخرى شرقية . فلعلك عاذرى بعد ، إذا أنا إشترطت التثبت من جنسيتك قبل الاتفاق على الدرس ! » .

فضحكت من كل قلبى لقصته ، وقصصت له قصة الجنسية ، وبرهنت له على كل شىء قلته ببعض كتب وأوراق كانت معى ، وطلبت إليه أن يتصل بالجامعة إذا شاء ، إلى غير ذلك .

وظهر من الحديث أنى أعرف بعض معارفه فأحلته عليهم . وأخيرا اقتنع الرجل ، وذللت لأول مرة عقبة الجنسية واتفق معى على إعطائه درسين فى الأسبوع نظير عشرة ماركات .

فكانت فاتحة لا بأس بها ضمنت كراء الغرفة ويزيد . وشكرت فى نفسى للآنسة إيرينا توجيهها الطيب لى بعد أن سدت كل الطرق فى وجهى .

وظهر إعلانى فى عدد يوم الأحد من جريدة « لوكال انتسيجر » وانقضى الأحد وتبعه الاثنين ولم يرد أحد عليه . وفى يوم الثلاثاء طلبتنى سيدة على التليفون قالت بعد التأكد من أن معلم العربية هو الذى يكلمها : « أحب أن آخذ عليك درسا فأى وقت يناسبك ؟ » .

« متى تحبين أن تبتدئى ؟ » .

« اليوم ، إذا وافقك » .

لابد من التهويش بعض الشىء ، وإلا قتلت جوعا .

فقلت لها : « أرجو أن تنتظرى على التليفون لحظة حتى أرجع إلى مواعيد الدروس ، فأنا مشغول جداً ، فالطلب فى هذه الأيام على تعلم العربية شديد ، ويصعب علىّ حفظ كل شىء فى رأسى . لابد لى أن أقيد كل حصة فى دفترى » .

وأمسكت دفتر التليفون وقلبت فى صفحاته لحظة وأنا أبتسم ، ولا أدرى هل أتقنت دورى أولا ، ثم ناديتها : « نعم ، تستطيعين أن تحضرى اليوم إلى قبل

الظهر ، فلحسن الحظ ألغى أحد تلاميذى درس اليوم لعذر طرأ عليه . . . »

« أشكرك ، سأكون عندك بعد قليل . »

فأخذت أعد نفسى لهذا العمل الجديد ، ولاستقبال التلميذة الجديدة فرتبت ملابسى ، وألقيت نظرة على المرآة ، ووضعت بعض المعاجم والكتب الضخمة فى غير انتظام على المكتب ، ونثرت عليه ورقة هنا وورقة هناك ، كما يفعل العلماء فى هذا العصر المقلوبة اوضاعه . وكنت فى زاوية الغرفة للانقضاض على الفريسة .

وبعد عشر دقائق دق الباب ودخلت فتاة فى منتصف العقد الثالث ، عليها مسحة من الجمال الشرقى ، سوداء الشعر ، بشرتها سمراء اللون نوعاما حسنة القد ، أول مايستلفت نظر محدثها فيها جمال فمها وأسنانها .

« كتبت فى أعلانك أن أجر الساعة ثلاثة ماركات . أليس كذلك ؟ »

« نعم ! هل ترينه كثيرا عليك ؟ »

« لا ، أنا فى حالة تسمح لى بدفعه . »

« هل تحبين أن نبدأ الآن ؟ »

أهملت الفتاة سؤالى ، وأخذت تبين لى السبب فى تعلمها اللغة العربية ، فقصت على أنها تتراسل مع أحد المصريين . وأنها مخطوبة منه وستسافر له فى الشتاء المقبل ، وتحب أن تعرف لغة البلاد قبل سفرها لتعرف كيف تتحدث مع أمه وأخته ، وكيف تأمر وتنهى فى الخدم المصريين

ثم سألتنى : « أتظن ستة أشهر كافية لهذا الغرض ؟ »

« نعم ! »

واستأنفت الحديث : « أنا لست ألمانية كما تلحظ ذلك فى لهجتى . أنا اسبانية أبا وأما ومولدا ، وأمى تدير مدرسة للرقص وأبى صحفى ، وقد ربيانى

تربية حرة . وأقضى فترة من الزمن كل عام فى برلين لأن أختى متزوجة المانيا.»

وظلت على هذا الحال تقص على قصتها ، وتنتقل من موضوع إلى موضوع، وكلما حاولت البدء فى التدريس قاطعتنى ، واسترسلت فى حديثها . ثم نظرت فى ساعتها وقالت :

« لقد انتهت الساعة . أرجو معذرة . الساعة الأولى دائما تذهب سدى . أرجوا إذا كان لديك وقت أن تعطينى نصف ساعه أخرى . »

« حسنا ! على شرط أن نبدأ الدرس . »

فأعطيتها ورقا وقلما وبدأت فى تعليمها الحروف الأبجدية : ا ، ب ، ت ... س ، ص .

« قل لى من فضلك ياحضرة المعلم ما الفرق بين س وص ؟ »

« الفرق عندنا عظيم ، ولكن الأجنبى المبتدىء لن يلحظه فى أول الأمر ، لاتهتمى الآن بمعرفة الفرق . بعد درسين ثلاثة عند ما نتعلم الحركات سأبين لك هذا . »

فضربت برجليها فى الأرض وبيدها على المكتب كالأطفال وقالت : « ولكنى أريد أن أعرف هذا الآن ! »

فرسمت لها الفم وموضع اللسان منه فى الحرفين عند النطق وضربت لها الأمثال ، فأخذت تخلط بينهما حتى ضاق صدرى ، وكدت أعتذر لها عن تعليمها، لولا أنها نظرت إلى الساعة وقالت :

« لقد انتهى الوقت على عجل ، لولا أنى أتعبتك لطلبت منك نصف ساعة أخرى . هل تريد الأجر فى الحال أو فى نهاية الأسبوع ؟ »

« كما تحبين . »

« حسنا سأدفعه دفعة واحدة فى آخر كل أسبوع ، وأريد أن آخذ درسا

يوما بعد يوم على أن تكون مدة الدرس ساعة ونصف ساعة . فقد أعجبتنى طريقتك فى التدريس . »

اتفقنا على موعد الدرس القادم ورجوتها أن تنقل الحروف التى كتبتها لها وأن تحاول حفظها . . .

هذه فتاة جميلة بحق . ولكن مامعنى سلوكها هذا ؟ ليس لدى تجارب تذكر كمدرس خصوصى لأحكم عليها . لعل الفتيات جميعا على شىء من الغرور وحب الغزل . على أية حال لايهمنى سلوكها . سأبقى دائما المعلم ، وستبقى التلميذة وبذلك أحصل على أربعة ماركات ونصف مارك فى الدرس مبلغ لا بأس به . والذى يهمنى الآن أن أحصل على تلاميذ جدد لأصلح من حالى . .

جاء موعد الدرس الثانى ، فجاءت فى الموعد المحدد له وجلسنا قبالة بعضنا إلى المكتب . ولم تكد تستقر على الكرسى حتى شرعت تسرد على كل ماصنعته فى يوميها . وكيف أنها عرفت سيدا فى مرقص كذا ، وأنه أراد أن يقبلها من أول ليلة . وسألتنى « أليست هذه وقاحة منه ؟ »

فتجاهلت قصتها وقلت لها مبتسما : « أرجو أن تكونى قد حفظت الدرس الفائت وكتبت الحروف ! » .

ظلت تتحرك على الكرسى هنا وهناك ثم قالت : « أرجو معذرة ، لم يكن لدى وقت للمذاكرة . وقد كتبت نصف الحروف فقط . » وناولتنى دفترا أنيقا اشترته لهذا الغرض .

ألقيت عليه نظرة فلم أجد فيه حرفا واحدا صحيحا . فقلت مشجعا لها : « جميل ! جميل ! بعض هنات بسيطة . هذا الحرف لا بد أن يرسم مائلا إلى اليمين ، وهذا يكتب فوق السطر ، وذلك تحته . حقا إن خطك جميل ! » .

ولما قلت هذا خجلت من نفسى لأن تصحيحاتى كانت بالمداد الأحمر فبدت

واضحة بشكل عجيب كذب كلماتى . وعلى هذا صممت من تلك اللحظة أن أصحح أخطاء تلامذتى بنفس المداد المكتوبة به .

« أرجو أن تلاحظى يدى عند الكتابة ، وتحاولى تقليدى . »

فأجابتنى ضاحكة : « ولكن كيف لى ذلك ، وأنت تجلس بعيدا عنى ؟ أرجو أن تجلس بجوارى لألاحظ يدك » .

فذهبت إلى جانبها يعرونى الخجل ، وانحنيت على الكراسة أكتب فيها الحروف وقلت لها : « هكذا يكتب الواحد . » فلم تنظر البتة إلى الكتابة ، وقربت وجهها من وجهى حتى أحسست أنفاسها الحارة على يدى ، وشممت أريج شعرها ينفذ إلى رأسى . فضبطت نفسى ، وناولتها الكراسة قائلا :

« حاولى أن تكتبى هذين الحرفين وحدك . » وأشرت لها على حرفى ج ، ح

فتعمدت الخبيثة كتابتهما خطأ ، فاضطررت للمرة الثانية أن أقترب منها ، وأحتمل هذا الموقف المثير متجلدا ، إذ أخوف ما كنت أخافه أن تنشأ علاقات صداقة بيننا فأخسر أجر الدرس وأنا فى حاجة إليه . فرسمت لها الحرفين نقطا لتمر عليهما بقلمها ، وطلبت إليها ذلك .

فألقت على نظرة لوم قائلة : « هذا تصنعه مع الصغار ، وليس مع الكبار . أنت رجل غريب الأطوار . مالك تخشى الاقتراب منى ؟ أرجو أن لا تغضب على . أمتزوج أنت ؟ » .

« معذرة ! هذه أحدث طرق التدريس ، ولم تصنعى شيئا يغضبنى . لست متزوجا ، أنا أعزب . »

وهكذا انقضت ساعة ونصف فى كر من جانبها وفى فر من جانبى . .

أحقا أنى رجل غريب الأطوار ؟ أظنها على حق . فرجل فى مثل حالى لابد أن يكون غريب الأطوار وربما فقدتها بسبب ذلك . عدا هذا فأنا أسلم بأنى

لا أعرف كيف أعاملها ، وأنا لا أستطيع فهمها بالمرة . ربما يحسن فى مثل هذه الحال أن أسأل معارفى المشورة . . . . . وشد ما أدهشنى انقسامهم إلى فريقين . فقد رأت النساء منهم دون استثناء أن مسلكى مع الفتاة لاغبار عليه ، وأن لا بد لى من التمسك به ، بينما أخذ الرجال علىّ جمودى معها ، وحذرونى إذا أنا سلكت نفس المسلك فى المستقبل ، فلا بد أنها ستنقطع عن الدرس . ولم أدر أية المشورتين آخذ بها . وأخيرا قررت أن أسير وراء مشورة النساء باعتبار أنهن أقدر على فهم بنات جنسهن من الرجال .

وجاءت الاسبانية فى الحصة الثالثة متأخرة ، واعتذرت عن تأخرها لاضطرارها ان تقضى بعض شئون لها فى الطريق . وحاولت أن تقضى الوقت كله فى الحديث لأن مزاجها اليوم منحرف ، وقد نسيت دفترها وكتابها فى الدار!

« قل لى أيها المعلم ، كيف تعلمت الألمانية ؟ » .

« طبعا على معلم خصوصى . »

« هذا مستحيل ، لأن الانسان لا يستطيع اتقان لغة اجنبية إذا اقتصر فى تعلمها على المعلم ، لا بد أنك فعلت غير هذا » .

« أؤكد لك هذا . ولا أنكر أن معلمى كان متينا ، وربما ساعدنى على إتقانها شغفى بها ، ووجودى فى البلاد نفسها . »

« أعتقد أن معلمك كانت سيدة . وهذا هو السر . فكما علمت أنه لا يمكن لرجل أن يتقن لغة أجنبية مالم يتلقها على سيدة ، والعكس بالعكس وهنا احمرت وجنتاها ، ونظرت إلى نظرة رقيقة .

« حسنا ، الحال كذلك معنا الآن . وأتعشم أنك ستتقنين العربية فى وقت قصير . »

« لا ، هذا مالا أعتقده . لابد أن يكون للمعلم مصلحه خاصة حتى تتقدم

تلميذته . ويظهر أن اهتمامك موجه إلى غيرى من تلميذاتك . أرجو أن تكون صريحا . أليس كذلك ؟ » ولمحت آية التوسل فى عينيها .

« كل تلميذاتى وتلاميذى سواء فى عينى ، وأنا أهتم بهم وبهن جميعا »

« أنت تتهرب من الجواب ، أنت رجل غير شريف » وسمعت رنة الغضب فى كلماتها .

« أنت تخطئين أيتها الآنسة المحترمة . »

أنت كاذب . إليك أجر الساعات التى اتفقنا عليها » وألقت بثلاثة عشر ماركا ونصف مارك على المكتب ، وتهيأت للخروج دون أن تقول شيئا .

وعند الباب قالت : « لن أعود بعد اليوم »

أتهرب ؟ أنا رجل غير شريف ؟ ! كاذب ؟ ! وهى ؟ ماذا تكون هى . . . ؟

* * *

هذه هى العينات الأولى التى صادفتنى فى مهنتى الجديدة التى لزمتنى حتى قبيل عودتى إلى مصر فى أواخر عام ١٩٣٨ ، وهى عينات مثبطة ، ولكنى لم أكن أملك الخيار لنفسى فى احتراف غيرها .

وأكثرت من الأعلان فى الصحف فجاءنى بعض التلامذة ، الذين جاءونى بغيرهم ، وأوصوا بى خيرا عند أصدقائهم ومعارفهم فنظمت حياتى بعض الشىء ، وقسمت دخلى على بساطته تقسيما يضمن لى حياة تطاق فى منفاى إلى حدما . فخصصت جانبا منه لكراء الغرفة آخذه ممن يدفعون لى الأجر مشاهرة ، وجانبا منه للغسيل والكى ممن يدفعون اسبوعيا ، وباقى مايلزمنى من طعام وشراء صحف ومجلات وكتب وارتياد المسارح والمقاهى ممن يدفعون لى بالدرس . ومددت رجلى - كما يقولون - فى هذا القسم الأخير على قدر لحافى ، فاذا كان

الدخل وفيرا لم أبخل على نفسى فيما ذكرت وإذا قل اكتفيت بالضرورى منه واقتصرت على زيارة مقهى تسونز . واقترح على بعضهم أن أعطى دروسا فى الأنجليزيه بجانب العربية ، ففعلت . وبذلك زاد دخلى بعض الشىء. وهكذا كان فى نكبة اليهود فى ألمانيا تفريج لأزمتى المزمنة ، وقديما قالوا : « مصائب قوم عند قوم فوائد »

واصطفيت من بين تلامذتى وتلميذاتى على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم بعض أصدقاء مخلصين ، كنت أقضى مع الواحد منهم ليلة أو ليلتين فى الأسبوع . وتمكنت أواصر الصداقة بينى وبين بعضهم حتى صرت أعد واحدا من العائلة . فأعطونى مفاتيح لدورهم حتى أستطيع زيارتهم فى أى وقت من الليل أو النهار ، وائتمنونى على أسرارهم وأعراضهم ، فكنت عند ظنهم بى. واعتادوا أن يدعونى فى أفراحهم وأعيادهم ، والخروج معهم فى رياضتهم فى أيام العطلة . وكثرت هداياهم لى ، فقل فى المدة الأخيرة أن يمر أسبوع لا أجد فيه هدية بل هدايا منهم فى غرفتى . ولا أبالغ إذا قلت أنى لم أشتر فى سنى الأخيرة فى برلين قميصا أو رباط رقبة . فكانت كلها تأتينى على سبيل الهدايا ، ومازلت أستعملها فى مصر حتى كتابة هذه السطور . بل إن أحدهم أهدانى فى عيد ميلادى آلة كاتبة لا يقل ثمنها عن أربعين جنيها . .

ومما لفت نظرى إلى وفائهم وكرمهم وحبهم لى أن أعلننى معظم تلامذتى فى أواخر شهر يونيو بسفرهم خارج برلين لتمضية إجازتهم الصيفية فأسقط فى يدى ولما حل موعد الدرس الأخير قبل رحيلهم ، دفع لى كل واحد منهم أجر الدروس التى سيتغيب فيها فكانت دهشتى عظيمة .

وقالوا لى : « هذا حقك . وهل تظن أن المدرس الخصوصى ليس له حق فى الحياة فى فترة الأجازات ؟ إن له حقا كذلك فى الاستجمام من عناء العمل

طول العام . ولم كان بودنا أن ندفع لك أكثر من ذلك لتتمكن من السفر مثلنا . . »

وظل كثيرون منهم يكاتبونني فى مصر حتى قبيل نشوب الحرب، ومازالت تأتينى رسائل ممن خرجوا من المانيا يسألونني فيها عن حالى ، ويبدون عطفهم على . بل حمل إلى تحيات نفر منهم بعض الذين زاروا مصر من أصدقائهم .

ليـــلة !

لم يبق على إنجاز كتابى الذى أكتبه مع إيرينا غير فصل أو فصلين ، ونحن الآن فى أواخر شهر مايو ، وقد ضقت ذرعا بهذه الفتاة ، ففى الوقت الذى لا أذكر فيه أنى كتبت كتاب حب لسيدة فى حياتى حتى ولا لأفريدا خطيبتى مع شدة إلحاحها على غير مرة فى أن أكتب لها كتابا واحدا تحتفظ به كذكرى لحبنـــا ، فلم أفعل ، وضحكت منها . أجدنى كتبت لإيرينا عدداً من الكتب لو جمع لألف مجلدا ضخما . ولا عجب ، فأنى لم أنقطع عن الكتابة اليها ولا يوما واحدا منذ كتبت لها أول كتاب . والعجيب أنها لم تجب على واحد منها ، مع شدة إلحاحى عليها فى الطلب ، وإن لم تنس يوما أن تشكرنى على كل كتاب . فابتدأت تقلقنى هذه الحال ، وصممت على محاسبتها فى المستقبل خطابا بخطاب ، ولو أدى هذا إلى مقاطعتها ، وعدم إنجاز كتابى . . .

فانقطعت فى الأسبوع الأخير عن الإملاء وقضيت معها الوقت كله فى مناقشات وشجار ، وأخيرا انقطعت فى أحد الأيام على الرغم منى عن زيارتها وعن الكتابة اليها ، فجاءنى منها فى اليوم التالى الكتاب الآتى :

« غرقتى تحن الى سحابة دخانك التى يعقدها غليونك فى سمائها كل صباح » ولم يحمل الكتاب اسما ولا ديباجة ولا تاريخا .

أمسكت الكتاب فى يدى معجبا به ، وتلوته أكثر من مرة ، وهتفت فى غرفتى :

الله أكبر ! ما هذا الأسلوب الفذ ! ! وما هـــذا الأدب الجم !! وما هذا الحياء والخفر وما هذا الغزل وما هذه المداعبة !! هذا الكتاب قطعة من إيرينا ، من طبيعتها ، من أخلاقها ، هذا هو إيرينا نفسها . تهوى وتكتم هواها ، وتحب وتكبت حبها ، وتتحرق شوقا وتخفى شوقها ، تطمع وتكبح طمعها ، ثم أسباب وعوامل مساعدة ، أعرف بعضها وأجهل أهمها ، أما ما أعرفه فهو حبها الذى لم أعد أجهله ، واعتزازها بكرامتها إلى حد الجنون ، ولكن فى تواضع وادب . ولعل ما أجهله هو الخوف ، خوفها ، ولكن مما ومن ؟ وكيف تخاف فتاة فى سنها وفى أدبها ! ؟ لا ، هو شىء آخر سأكشفه ، ولو كلفنى غاليا ، ولماذا تعمدت أن لا تذكر اسمى فى صدر خطابها أو أن تبتدئه بما تواضعت الناس عليه ؟ أظننى أعرف السبب ، أظننى أستطيع أن أخمن واحدس فى هذه الناحية ، واعتقد ان حدسى وتخمينى على حق ، لقد غم عليها الأمر فلم تدر ماذا هى كاتبة فآثرت عدم الكتابة ، لم يطاوعها قلمها على الكذب والرياء إذا خطت ـ السيد فلان الفلانى ! ـ ولم تطاوعها كبرياؤها وحياؤها أن تكتب لى لأول مرة ـ عزيزى فلان ! ـ ولماذا لم تنسب الحنين إليها صراحة بدل أن تقوله على لسان غرفتها ؟ ! هذه الفتاة قوية محبة للنزال ، تريد أن تفتح قلبى المغلق ، وتغزو أرض حبى شبرا شبرا وفترا فترا ، ولا تريد أن تهز يدى إلا بعد أن يكتب لها الغلبة على فى الميدان ، كما يفعل رجال الأسبور فى حلبة الرهان . رضيت منازلتك ، لقد وجدت ندك ، وأنا اليوم أقوى منى أمس .

لبيك أيتها الغازية ! لبيك إيرينا ! أنا قادم على عجل .

بعد دقائق كنت فى غرفتها أدخن غليونى ، ولكنا لم نكتب فى هذا اليوم شيئا فى الكتاب ، بثثتها أشواقى ، وعتبت على انقطاعى فى رقة وتحفظ ، وصارحتها بعزمى : إما جوابا بجواب ، وإلا انقطعت عنها ولو كلفنى ذلك تحطيم رأسى إذا لم يطاوعنى قلبى ، ورأت تصميمى ، وكانت تعرف شيئا عن عنادى فظلت متحفظة فلم تجب بكلمة على تحذيرى ، ولكنها أومأت إلىّ بعينها إيماء الأذعان .

ومهدت لغرض فى نفسها ، عادتها عند ما تريد أن تسدى الىّ يدا أو أن تتعرف شيئا من خصوصياتى قالت :

« ضقت أمس ذرعا بنفسى دون سبب فأردت أن أروّح عنها ، فتركت الطعام فى الدار ، وقصدت مطعم كروزا ، وتناولت العشاء هناك ، ومطعم كروزا له شهرته كما تعلم ، فما رأيك أنى لم استسغ طعامه ، وفضلت طعام الدار عليه . هذه المطاعم مهما بلغت شهرتها غير مأمونة ، هذا فضلا عن الأسعار الباهظة التى يتناولونها من الزبائن ، وبهذه المناسبة كم يكلفك طعام الغداء ؟ كلما أردت أن أسألك غلب على النسيان . »

« أنا أتناول طعامى فى مطاعم رخيصة ، ومتوسط وجبة الغداء يكلفنى ستة قروش . »

« هذا كثير . »

فضحكت لجوابها وقلت لها : « لعلك تمزحين ! إنه دون الرخيص ، فمتوسط ما يدفعه الواحد فى وجبة محترمة لا يقل عن عشرين قرشا . »

« آه ، دعنا من هؤلاء اللصوص . فمثل هذه المحلات لا يدخلها إلا الأجانب أو من يربحون المال من طريق هين لين . عندى اقتراح ، أنا أطهى طعامى لنفسى بنفسى كل يوم . لا تضحك ! أو كنت تظن أنى لا أعرف غير الكتابة

والكتب ؟ لا ، لا ، تخطيه يا سيدى ، أرجو أن تغير رأيك فى من الآن ، أنا أجيد الطبخ وأجد لذة فيه . وقد وجدت بالمقارنة أنه يكلفنى أرخص من أرخص مطعم فى البلد ، فما رأيك إذا طبخت لك معى ، أعنى زدت المقدار قليلا ، بذلك سيقتصد كلانا مبلغا فى مجموعه لا بأس به ، وستضمن طعاما نقيا شهيا خاليا من الغش ، سيكلفك فقط ثلاثة قروش فى اليوم ، هذا على الأكثر ، سأقدم لك مرقا وخضارا ولحما وأرزا أومكرونة وحلوى . »

« الاقتراح لاغبار عليه . وأما الثمن فلا يتفق . . . . . »

فقاطعتنى قائلة : « سأريح وساوسك . أنت رجل صعب . سأقيد كل مشترواتى . وأقتسم معك النفقات جميعها . ولتبدأ مائدتنا من الغد . »

ونفذت اقتراحها . . . . وبقينا أياما نلتقى كعادتنا فى الصباح ولكن لا لانجاز الكتاب ، بل للمسامرة ، وإعداد طعام الغداء والتراسل فى المساء ، ولم تحد فى كتاباتها عن النوع الذى أعطيتك صورة منه فى صدر هذا الفصل ، فغاظنى منها كتابتها عن نفسها بضمير الغائب ، وعدم ذكر اسمى فى ديباجة الكتاب أو أمضائها عليه ، فأخذت أكافح هذا النقص فى كتبها أياما ، ولم أظفر بتحقيق رغباتى هذه دفعة واحدة ، فكلما حققت رغبة استلزم الأمر أياما للكفاح فى سبيل تحقيق الرغبة الثانية وهكذا . . فكانت أول خطوة خطتها فى هذا السبيل أن صدّرت كتابها بـ « السيد فلان الفلانى » وتلتها الخطوة الثانية : « السيد فلان » ، ففلان » ثم « عزيزى فلان » . وبقى الضمير الثالث والأمضاء فشننت عليهما حربا شعواء . وأخيرا تم لى الظفر وقد استلزم هذا الكفاح منى شهرا كاملا . .

وذهبت فى أحد الأيام كعادتى إلى إيرينا ، فوجدتها منهمكة فى أمور غرفتها ، ومعها خادم تساعدها فى غسل زجاج النوافذ ، وتغيير الستائر ، وتنفيض

السجاد ، وبعد أن اعتذرت طلبت إلىّ أن أتناول طعام الغداء اليوم فى المطعم .

فقلت : « لا بأس ، وفى استطاعتنا أن نعوض هذا الصباح بعصر اليوم أو مسائه . »

فارتعد بدنها ، وتغير لونها بعض الشىء ، وقالت : « لا . لا . ليس فى الاستطاعة ذلك . أنا مشغولة اليوم طوله ، ومشغولة كذلك فى المساء موعدنا غدا كالمعتاد . »

فتأثرت نفسى لجوابها . ودار بخلدى أن بالأمر سرا ، وأن هذا السر يمسنى . فألححت فى طلب معرفة طبيعة هذا العمل الذى سيشغلها النهار والليل . فقالت بعد أن حاولت عدة مرات التهرب من الأجابة :

« عندى ضيوف . »

« أنت لاتقولين الحق يا إيرينا ، وليس عهدى بك كذلك . إذا كان قد جد فى الأمور جديد فأصدقينى . »

فقالت فى حياء وخفر : « اليوم عيد ميلادى ، وقد تعودت أن أقضيه مع عائلتى . »

« كذا ! » ومددت لها يدى مهنئا .

وخرجت وخرجت ورائى تشيعنى خجلة إلى الباب وهى تكرر :

« لاتغضب على ! »

وأعياد الميلاد عزيزة عند هؤلاء القوم . وعيد هذه الفتاة أعز الأعياد عندى . ولها أياد على جمة ، وواجبى أن أرد اليها بعضها اليوم وكم كنت أتلهف على مثل هذه الفرصة لأرد لها اليد يدين . وأكيل لها الصاع صاعين . ولكن الأيام السود أبت علىّ تحقيق حتى هذه الأمنية المتواضعة ، فقد كنت فى هذا اليوم خاوى الوفاض ، إلا من بضعة مارکات للنفقات الضرورية ولا تصلح لشراء

شيء ذى قيمة . ومبلغ ظنى أن الفتاة قد أخفت عنى هذا اليوم حتى لاترهقنى بشراء الهدايا لها ، فهى تعلم رقة حالى ، فحز الألم فى كبدى ، وضحكت ضحكة كلها حسرة ومرارة وقلت فى صوت مسموع : « صدق الله العظيم - يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم »

وأخذت طريق إلى الدار ، وهناك جلست إلى مكتبى ، وأسندت رأسى بين يدى مدة من الزمن لا أدرى طولها . قد تكون لحظة أو لحظتين ، وقد تكون ساعة أو ساعتين ، مدة كنت فيها بعيدا بروحى عن الأرض ومافيها . كنت فيها سابحا فى الأجواء العلى مابين الأرض والسماء . ولما أفقت لم أحاول أن أن أحسب الوقت الذى قضيته على تلك الحال ، ومددت يدى إلى القلم والورق وكتبت فى وسط السطر

طليق يحن إلى العبودية

وانطلق القلم على القرطاس انطلاقا لم أعهده فيه ، وتواردت الأفكار والخواطر تزحم بعضها بعضا ، ولكنها كانت مرتبة منظمة . تدفع الفكرة الأخرى ولاتتقدمها ، فيتلقفها القلم ويقيدها ، فلم أحتج إلى شطب أو تحوير أو توقف . وكلما ملأت صحيفة تناولت أخرى حتى ملأت بها تسع صفحات من القطع الكبير .

ثم أخذت ورقة جواب وكتبت عليها :

عزيزتى إيرينا !

« ليتك تتقبلين الأقصوصة المرسلة مع كتابى هذا ، والتى كتبتها الساعة من أجلك ، هدية فى عيد ملادك ، ربما كان فى السوق مايفضلها . ولكن الأدب المجلوب كتب للناس جميعا . أما أقصوصتى هذه فقد حكتها لك وحدك »

وطويت الكتاب ، وطويت القصة ووضعتهما فى ظرف كبير . وبعثت بهما

إليها مع رسول خاص . . . وانطلقت أروح عن نفسي من عناء الكتابة ومرارة الحاجة . وعدت إلى الدار مبكرا . فقالت لي صاحبتها إن الآنسة إيرينا قد طلبتني على التليفون أكثر من مرة ، وأنها تركت لي خبرا أن أمر عليها الليلة في دارها لأمر مهم . . . .

ترى ماذا جد في الأمر ؟ ! وعدت أدراجي نازلا في السلم مهرولا لا ألوي على شيء . ودققت باب إيرينا ففتحته لي بنفسها وكان وجهها مشرقا ، وروح المرح والاستبشار مرسوما على جبينها . فتحت ذراعيها عند رؤيتي وطوقتني بهما لأول مرة . ففغرت فمي من الدهشة . والعجيب أنني لم أقو على مبادلتها عطفا بعطف . لأني لم أكن أتوقع من هذه الفتاة العنيدة شيئا مثل هذا . فأزالت دهشتي بقولها :

« لم أتلق في حياتي هدية أثمن وأغلى من هديتك . قرأتها حال وصولها وكان جمع من العائلة محتشدا في غرفتي . فبعثت بهم في الحال إلى دورهم . وفضضت العيد لنحييه معا . واتصلت بك أكثر من مرة بالتليفون . تعال ، تعال إلى الغرفة . . . » وأخذت بيدي وهي مستمرة في حديثها : « وانتظرت قدومك على أحر من الجمر ، هذه الليـــلة ليلتك . وقد خصصتها لنا . ولك أن تتمنى فيها ما تشاء . »

أي حظ موات هذا . وقديما قالوا - لكل شيء أمد - وكنا قد بلغنا الغرفة . فوجدت آثار العيد قائمة فيها . فثم زهور ، وكتب ، وحلى وحـــلوى . . . وقد صففت تصفيفاً يدل على الذوق والأناقة . وقبل أن نأخذ مجلسنا قالت إيرينا : « انتظر ، لا تتمن على شيئاً . فلي أمنية عندك أرجو تحقيقها أولا . »

« هاتي دون تردد أو تحفظ »

ترى ماذا عسى أن تكون هذه الأمنية ؟ آه ، لتكن ما تكون ، ليتها تطلب منى المستحيل ! تطلب أن نقضى الليلة معا فى المريخ ، أو على ضفاف النيـــل ، أو فى صحراء الأهرامات ، أو أن أضع فى يديها القمر لتلعب به . إنى على ذلك واكثر من ذلك اقدير ـ هكذا تخيلت نفسى فى تلك اللحظة . .

« أريد أن تكتب تحت عنوان الأقصوصة مهداة إلى . . . . فى عيد ميلادها ، وأن توقعها بإمضائك لأحتفظ بها لى ، ثم تمليها على الساعة . لننسخ منها ثلاث نسخ على الآلة الكاتبة ، واحدة لأختى ، وواحدة لك والنسخة الأخيرة نبعث بها لجريدة فوسشا . »

« اتفقنا ! أسرعى ! . . . فى وسط السطر : طليق يحن إلى العبودية ... أول السطر . . . »

ولما انتهينا من نسخها ، بعثتْ بنسخة الفوسشا اليها فى الحال . ثم قالت :

« الآن نستحق شيئا من الراحة ، فقد أدينا عملا . . . »

وجلسنا إلى مائدة عليها شراب وطعام مختلف ألوانه وأوانيه . . . وانتشت إيرينا بعض الشىء فأخذت تتحرك على كرسيها قلقة هنا وهناك ، كأنها تريد أن تقول شيئا ولا تقوى على قوله . ثم تشجعت وسألتنى فى دلال :

« أحب أن أعرف الآن أمنيتك . »

فلم أعرف ما أقوله . كنت كالمعدم الشقى الذى يلقى كنزا فلا يعرف كيف يبدأ باستثماره . وتزاحمت الأمانى فى رأسى ، فلم أدر بأيها أبدأ . كنت كأبى خراش لما تكاثرت عليه الظباء ، فلم يدر أبو خراش أيها يصيد . فأردت اكتساب الوقت ، لأعود إلى فكرى ، وأركز أمانى . فقلت لها :

« احذرى ! »

فصبغ الحياء وجهها وقالت : « لا أدرى ما يجول فى خاطرك . »

قلت : « حاولى ! احذرى أى شىء ! »

فهزت رأسها ، والتفتت وراءها وهى تقول : « لا ، لا ، قل أنت . »

« لى أمان وآمال كبار ، هى سر تعبى فى الحياة . وأنا قانع الليلة منها بالقليل لو تسمحين بتحقيقه . »

« اطلب شيئا أستطيع أن أحققه لك الليلة ، وأنا عند وعدى . »

اسمحى لى بالبقاء بجانبك هذه الليلة حتى الصباح . »

« رضيت على شريطة أن تغادر الدار فى الصباح الباكر ، الباكر جدا ، لأنى أحب أن أحافظ على سمعتى عند الجيران . »

« اتفقنا ! على أن لا تعصى لى أمرا . »

* * *

وكانت إيرينا ترتدى ثوبا أبيض جديدا يتألف من قطعتين ، وقد لبست تحت السترة صدارا فضيا يتلألأ طول الوقت . وبدت يد التجميل فى شعرها ووجهها واضحة ، فازدادت جمالا على جمالها ، فكان النظر إلى ثيابها أو شعرها مقبلة أو مدبرة مما يدخل على القلب سرورا ، ويبعث فى النفس نشوة عجيبة .

بقينا نأكل ونشرب ونسامر ، حتى أوشك الليل على الانتصاف ، فخلعت الساعة من معصمها ووضعتها أمامها على المائدة ، وبعد لحظات أطفأت المصابيح ، وأوقدت الشموع . وقالت :

« الساعة الثانية عشرة ، فى هذه اللحظة ، تنفست لأول مرة أنفاس الحياة على الأرض . » ونهضت واقفة وقالت : « سامحنى إذا أنا اضطجعت قليلا على الأريكة لأستريح بضع دقائق . »

« لك ذلك . »

وأسندت إيرينا الجزء الأعلى من ظهرها إلى أسفل المسند ، وأدلت رجليها قريبة من أرض الغرفة ، وأخفت رأسها فى وسادة لينة بعد أن ثنت طرفيها ، فاختفى شعرها إلا مقدمه ، وبان وجهها كالقمر بين السحاب . فغلت حمى الحب فى رأسى ، فقمت من مكانى وقلت لها :

« ما هكذا يستريح الناس . » وأخذت بساقيها فمددتهما على طول الأريكة .

فضحكت وقالت : « عندك حق . قرب إذن كرسيك منى لنواصل الحديث . »

فاقتربت منها شيئا فشيئا حتى شممت أنفاسها وشممت أنفاسى ، فانتفضت فى مكانى ، وجف ريقى ، فأخذت جرعة من شراب العيد ، وأعطيتها جرعة . ولما أرادت أن تعيد رأسها إلى مكانها الأول قلت لها :

« انتظرى ! إن هذه السترة الجديدة المنشاة المكويه ستتكسر . وقد ظهر فيها بعض الثنيات بالفعل ، فلماذا لا تخلعينها ؟ » .

« لا ، لا ، سأصلحها غدا . »

فتقدمت اليها ، وأمسكت بطرف السترة لأساعدها على خلعها ، فتمنعت تمنع العروس ، وتثنت تثنى الغصن الرطيب ، تشيح بوجهها تارة ، وتدفع بيدها فى رفق تارة أخرى . وأنا بين هذا وذاك أعمل على تخليص ذراعيها من الأكمام واحدا بعد الأخرى . حتى تم لى ما أردت ، فبلغ بى الوجد مبلغا لم يبق لى معه سلطان على نفسى فقلت لها :

« وهذا الصدار المتلألىء ؟ كلما رقص الضوء عليه أزعج ناظرى . فهو لا يتفق بحال مع نور الشمع ، ولا مع هذا الجو الشعرى الذى نعيش فيه أرجو أن تخلعيه كذلك . »

« لا ، لا ! »

واشتد دفاعها عن ذى قبل ، واشتد هجومى . وأرادت أن تهب من ضجعتها

فسمحت بيدى على شعرها وعلى خديها ، فبقيت مكانها . ودنوت منها أشبارا فابتعدت عنى أشبارا . وبعدت عنها قليلا ، فدنت منى بقدر ما ابتعدت عنها . وزررت ما فكمكته من أزرار صدارها ، وعدت ففككتها ، وهكذا أبنى وتهدم ، وأهدم ماتبنى . كل هذا جرى مصحوبا بكلمات التعلمين والحب . ولو قيض لهذه المداعبة الطريفة أن تمثل على المسرح ، لكانت قصة خالدة تأخذ على النظارة قلوبهم ومشاعرهم فى كل مرة يشاهدونها .

وأخيراً رفع الصدار ولكن عن قميص أسمر شفاف من الحرير الغالى . فحولت نظرى إلى ماتحته محاولا كشف أسراره . فأخذت تتلوى فى مكانها ذات اليمين وذات الشمال . فأمسكت بكتفها فلم تعد تبدى حراكا ، وارتسم الرعب على صفحة وجهها ، فشبه إلىّ بوجه طفل مذعور أمام معلمه ، فلم أتمالك نفسى من تهدئة روعها . فتظاهرت بالاطمئنان إلىّ على غير ما أخفت فى صدرها ، فوجهها كان مرآة صادقة لكل مايجول فى قلبها ، فيسجل على ديباجته كل انفعالة وكل إحساس داخلى مهما رق ودق . فقلت لها لأبعد عنها الوساوس :

« أتظنين أن جريدة الفوسشا ستنشر لنا القصة ؟ »

فنجحت فى تحويل أفكارها ، فقد عاد الأشراق والمرح إليها وقالت فى حماس :

« بدون شك ، فهذه القصة خير ما قرأت ، وأراهن على أن الجريدة ستبعث لك بخطاب شكر وتقدير عليها . »

ولم أستطع الاسترسال معها فى مثل هذه الأحاديث التوافه ، فقلت لها بلهجة المتوسل : « إيرينا ! بقى لى مطلب واحد أعدك أن لا أتخطاه الليلة . هذا الجزء الأسفل من ثوبك سيصيبه ما أصاب السترة من التكسير . اخلعيه كذلك وحسبك هذا القميص الذى يستر جسدك . اخلعيه لاتخشى شيئا ، هذا وعد رجل ، وسأعرف كيف أحافظ عليه . »

فرأيت الحيرة مرتسمة على وجهها ، فلم أترك لها وقتا للتفكير ، وساعدت بمناى يسراى على تحقيق أمنيتى . وبدت إيرينا فى قميصها الحريرى الشفاف كالزهرة فى الغلالة . تأملتها لحظة من رأسها إلى أخمص قدميها ، فلم أر فى هذا الجسد عيبا أو مأخذا لناقد فنان . فيهرنى جمالها . هذا هو نشيد الرسامين والكتاب . اللهم اهدهم اليه ، وأنزل على قلبها الاطمئنان اليهم ليرسموا صورة الجمال الخالدة ، وينظموا فيه قصيدتهم . وبينا أنا أجيل الطرف ثملا فى صدرها رفعت يديها إلى ثدييها وسترتهما بهما . وخشيت الفتنة ، فأسندتها بيدى لتقوم من ضجعتها وأنا أقول لها :

« واحسرتا للغريب المحروم عندك يا إيرينا ، انهضى لا بأس عليك ، فالصبح قد تنفس ، وأنا عند وعدى لك . »

وسرت أضرب فى الطريق على غير هدى ، فرأيت براين عند شروق الشمس لأول مرة وقد خلت الطرق من السابلة إلا من وقع أقدام مارة أو مار يسير مسرعا بين الفينة والفينة . أما أنا فكنت أسير الهوينا أتأمل السحاب يطبق حينا على طلائع الصباح ، فأحسب أن فى الليل بقية لم أنتفع بها لتسرعى فى الخروج من عند إيرينا ، وحينا تتفرق جيوشه فأحسب النهار قد وضح . ثم أنظر إلى الأرض فأجد الطل قد بللها فأحسها لينة تحت قدمى على غير عادتها فأظل أسير إلى الأمام ثملا بنشوة هذه الليلة الفريدة فى تاريخ حياتى وقد زادنى منظر براين فى الصباح الباكر نشوة على نشوة . ظللت أسير على هذه الحال أكثر من ساعة . ثم أخذت الشوارع تعج بالناس ، وانطلقت السيارات والعربات تنهب الأرض ، فلم يبق بد من الذهاب إلى غرفتى .

وحسبت أن كل حجاب بعد اليوم قد رفع بينى وبين إيرينا ، وأنها أصبحت لى ، ولم يبق إلا أن أمد يدى فتلتقى بيدها فى منتصف الطريق أو أن أفتح لها

ذراعى فترثمى فيهما . ولكن كل ما رويته لك هنا من آثار تلك الليلة قد تبخر فى اليوم التالى . فقد عادت إيرينا إلى ما كانت عليه من التمنع والدلال ، نعم إنها لم تمن فيهما ، ولكنها لم تقلل منهما كذلك.

ترانى كنت حالما ؟ أو ترانى كنت أشهد قطعة تمثيلية أحكمت البرمادونا فيها دورها فغم علىّ الأمر وحسبتنى أنا وإيرينا كنا الممثلين ؟ .

* * *

أما القصة فلم تحقق الأيام رغبة إيرينا فى نشرها فى جريدة فوسشا . فبعد أربعة عشر يوما من إرسالها للجريدة جاءنى من رئيس التحرير الكتاب التالى :

السيد المحترم . . . !

يسوءنا أن نخطرك أن صحيفتنا فوسشا ستتوقف عن الصدور إبتداء من اليوم لظروف قاهرة . وكم كان يسرنا أن نحلى جيد أحد أعداد أيام الآحاد بأقصوصتك العجيبة « طليق يحن إلى العبودية » ! ومع ذلك فقد رأينا الاحتفاظ بها لشدة إعجابنا بها ، فتقبل تهانئنا على هذا المجهود الأدبى العظيم المنقطع النظير . .

وقد بعثنا لك بطريق البريد بمبلغ ١٢٠ ماركا ، قيمة الأجر المحدد لها فى حالة النشر .

وتقبل . . . الخ .

ولم يطربنى هذا الثناء الصادر من أكبر وأقدم صحيفة أدبية فى العالم بقدر ما أساءنى عدم نشر قصتى إرضاء لمطامع إيرينا . وعرضت الكتاب عليها . فأبدت أسفها أولا . ثم قالت لى مزهوة بنفسها :

« لم يخب تقديرى لهذه الأقصوصة الجميلة ، فجريدة فوسشا رغم توقفها عن الصدور تشتريها ، وهذا مالم نسمع بمثله فى عالم الأدب . احتفظ بكتاب رئيس التحرير لك ، فأنه شهادة ليس مثلها شهادة . »

فقدمت لها المبلغ راجيا أن تتقبله لأنه من حقها ، فرفضت زاعمة أنه من حقى أنا . وبعد مشادة بسيطة رضيت أن تقتسمه معى . فأعطيتها نصفه وخطر ببالى أن أشترى لها هدية بالنصف الآخر . فاشتريت لها به جوارب ومناديل . ولما عدت إلى دارى فى المساء وجدت هدية لى منها . (طقطوقة) سجاير من البورسلان الغالى وعدة حلاقة ولوازمها من صابون وغيره ، ومع الهدية الكلمة الآتية دون توقيع :

لعل اختيارى لهذه الهدية المتواضعة لا يغيب عن ذكائك ، فأدوات الحلاقة لتذكرنى كل صباح ، أما (الطقطوقة) فلتذكرنى كل ليلة قبل نومك على أمل أن تضعها بجانب سريرك .

أسرار تتكشف

زارتنى فى عصر أحد الأيام فى دارى السيدة إرمابراندت صديقة هرشفرين الذى مات منتحرا ، ولم أكن رأيتها قبل ذلك . وهى امرأة أميل إلى البدانة تلبس ملابس اسبور رغم تقدمها فى السن . فهى على ما أظن قد تخطت الأربعين شقراء ، براقة العينين محدثة لبقة ، مغرمة بالتدخين ، فرحبت بمقدمها ، واعتذرت لتأخرى عن زيارتها طول هذه المدة ، وسألتها إذا كان فى مقدورى أن أقدم لها أية خدمة .

قالت : « نعم ، وأنت وحدك الذى تستطيع ذلك فحياتى ومماتى فى يديك »

« فى يدى أنا ؟ »

« نعم ! »

فدار فى خاطرى أن المرأة قد جنت لفقد صديقها . وسألتها لأستوثق من هذا الخاطر :

« وكيف كان ذلك ؟ »

« لعلك علمت أن البوليس يبحث عن السيدة التي كانت مع هرشفرين ليلة انتحاره ؟ »

ولم يكن لدى علم بشيء من ذلك ، وبدا على التململ فقاطعتها : « ثم ؟ »

قالت : « لا يدري أحد شيئا عن هذه المرأة غيرك . »

« كيف ذلك ؟ ثم ماذا يهمك من أمر هذه المرأة ؟ »

قالت : « أرجو أن لا يضيق صدرك قبل أن أنتهي من إجابتي . اصغ إلي ، أنت رجل معقول ومضطهد وستفهمني دون شك . لذلك أجب أن أصارحك بكل شيء ، وكل ما أرجوه منك قليل من الصبر . » وانطلقت تقص على القصة الآتية بجرأة وثبات لم أرهما في رجل ولا في امرأة من قبل قالت :

« ترجع صلتي بهرشفرين إلى عشرين عاما ، لم نختلف فيها يوما واحدا . وكنت أعزه ويعزني ، بل أقدمه في كثير من الحالات على نفسي . ونكب أخيرا في ثروته على ما علمت ، ولم يكن في طاقتي مساعدته ماديا لظروف ستعرفها فيما بعد . فآوته السيدة صاحبة القصر وأطعمته ، ولكن كل لقمة من خبزها كانت خنجراً مسموما يطعن في جانبه . فقد كان إذا سها مرة عن شكرها ذكرته بأياديها عليه ، بل ذهب بها الهوس إلى أبعد من ذلك ، كانت تطالبه بأن يشرك أصدقاءه معه في الثناء عليها ، وكانت تلومه إذا قصر في إحضار بعضهم يوما ما ، وقصر الذين جاء بهم في حمدها ، والويل له إذا كانت قصائده التي ينظمها لها في الأعياد تقل أبياتها عن عشرين بيتا ، فلم يعد في الايام الأخيرة يطيق صبرا على هذه الحال ، وكم مرة ادعى زيارة أخته ، أو قضاء مصلحة خاصة به مع رجال الحكومة ، وترك القصر ونعيمه وطعامه وشرابه ، وضرب في الأرض طول يومه جائعا . وأخيرا وزن حاله والظروف المحيطة به في رأسه ، فقدر

حقيقة موقفه ، وانه قد تقدمت به السن ولم يعد يقوى على الكفاح من جديد في الحال الحاضرة ، وأن الحياة تستحيل عليه مع هذه العجوز ، فآثر الانتحار . ولما كنا شديدي الاخلاص بعضنا لبعض وكنا شخصين متزنين ، ليس للعاطفة عندنا شأن في حكمنا على الأمور . رأيت رأيه ، ووافقته على عزمه على الكره مني . فما كان أحوجه إلى الراحة وبحثنا معا في هدوء أخف طريقة للانتحار حتى لا يتعذب المسكين في آخر ساعاته ، فلم نجد أفضل من تناول كمية من الفيرونال . فتعهدت له بأحضار ثلاثين قطعة منه تكفي لقتل جمل . وعز علي أن أترك صديقي وحده في آخر لحظة ، فالرجل عزيز علي ، وليس من شيمة الوفاء أن يتخلى صديق عن صديقه في مثل هذا الموقف ، فاصطحبته وزرناك في دارك فلم نجدك ، فذهبنا على التو إلى أحد الفنادق واستأجر صديقي غرفة بسرير واحد ، وطلب شايا ، وأذبت له قطع الفيرونال ، وناولته الفنجان في يده ، ولما رأيت يده ترتعد بعد أن شرب نصف الفنجان ، أشفقت عليه ، وتناولته من يده وسقيته ما تبقى ، ولولا شدة حبي له لخانتني يدي . وتحدث معي بعد ذلك ثلاث دقائق ، وأخذه النوم ، فانسحبت في هدوء وأغلقت باب الغرفة ورائي مطمئنة لاعتقادي أني استطعت أن أقدم لصديق خدمة جليلة كهذه عند شدة حاجته اليها . ولعلك تقرني على هذا . وكما ترى فأنا المرأة التي يبحث عنها البوليس . »

فهلعت أمام القاتلة ، وقف شعري من الخوف والتقزز ، وخشيت أن يكون بها مس من الجنون . فأردت امتحانها أولا لأطمئن إلى سلامة عقلها ، قبل الاسترسال معها في الحديث ، فقلت لها : « قولي لي بهذه المناسبة في أي الأيام نحن ؟ »

فحدقت في عيني قليلا ، فاهتز جسمي . ثم ابتسمت ابتسامة ساخرة ، وأخرجت علبة سجايرها من جيبها وأشعلت واحدة من عقب سيجارتها وأخذت نفسا

طويلا ثم أخرجته من أنفها وفمها أمامها فى الهواء وقالت : « نحن يوم كذا ، الموافق كذا من شهر كذا عام كذا . . » وتوقفت لحظة وأخذت نفسا آخر طويلا من سيجارتها ، ثم اعتدلت فى كرسيها واستأنفت الحديث : « لعلك سألتنى هذا السؤال لتشكك فى قواى العقلية ولكن لأطمئنك أزيد على جوابى السالف أنه قد مضى الآن على حادث هرشفرين المؤلم كذا من الأيام لأنه وقع فى مساء كذا فى الساعة كذا ، فى فندق كذا . »

فاشتدت نقمتى وغضبى على هذه المرأة ، ولكنى لم أر بدا من كبت عواطفى والتظاهر أمامها بعكس ما أحس اتقاء لشرها وفضا لهذه الجلسة بالتى هى أحسن ، فقلت لها : « لا ، لا ، أستغفر الله ! لم يدر شىء من هذا فى خلدى . هل تسمحين أن أسأل السيدة ، أمتزوجة هى ، وهل تحترف مهنة خاصة ؟ وقصدت بذلك أن أحوّل مجرى الحديث وأبعدها عن فكرة تشككى فيها .

« تزوجت ثلاث مرات من ثلاثة أطباء . وأنا أرملة اليوم . وعندى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها علّمتها النجارة ، وولد فى الحادية عشرة فى المدرسة . وأعيش من نفقة أتناولها من والد الولدين ومن بعض ما أكتسبه من قراءة الخطوط أعنى الجرافولوجى »

« ابنتك تتعلم النجارة ! لم أسمع فى حياتى أن فتاة تشتغل نجارة قبل اليوم ! »

فضحكت ضحكة عالية وقالت بلغة فيها شىء من المداعبة : « ومن قال أنك سمعت كل شىء ؟ ! إن فتاتى قوية الجسد ، مفتولة العضل ، تعطيها أكثر من سنها ، وعندما تزورنى ستتأكد مما أقول ، فستجد عندنا موائد ، وخزانات جميلة من صنع يدها ، وهى على صغر سنها فاتنة ، ولها جيش من الشباب المعجبين بها فاذا سارت فى الطريق ، فكأنما تسير على رأس قافلة ، ها ، ها ، لقد شبهت جيش الصغار بقافلة عندما تذكرت أنى أتحدث إلى مصرى ، أصحيح أن النقل عندكم

على قوافل الجمال تقطع البلاد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ، إن منظرا كهذا فى مدينة كبرلين لمنظر شعرى . . . معذرة ! »

فتغاضيت عن تعليقها على مصر ، ولم أحاول أن أعرف ما إذا كانت تسخر منا أو أنها تداعبنى ، وقلت لها :

« وهل تصدقين أنت فيما بينك وبين نفسك فى قراءة الخطوط . »

« وهل فى ذلك شك ؟ »

« معذرة ، فأن ثقتى بقراءة الخطوط ضعيفة كثقتى بقراءة الكف ، وعمل الطوالع الخ . الخ . وأعدها جميعا ضربا من الدجل »

« تخطىء ياسيدى فى عدم إيمانك بقراءة الخطوط ، وتخطىء كذلك فى خلطك هذا العلم بغيره مما عددت ، فقراءة الخطوط علم معترف به ، وله آثاره العظيمة فى كل مكان . » وحاضرتنى فى علم قراءة الخطوط عن منشئه وتطوراته ودللت على صحته ، ثم ختمت محاضرتها : « إن له معاهد رسمية يدرس فيها ، ويمنح طلابه إجازة بعد اجتياز الامتحان النهائى ، وأن أصحاب الأعمال الآن يعتمدون عليه فى أعمالهم ، فصاحب العمل يشترط اليوم على طالب العمل عنده أن يكتب طلب الاستخدام بخط يده ، وهو بدوره يحيله على معهد قراءة الخطوط أو على أحد الأخصائيين ، وعلى ضوء تقارير المفسر يقبل طالب العمل أو لا يقبل ، فالخط يكشف عن مقدار أمانة صاحبه ، وجده ، وذكائه وفى استطاعة الماهر فيه أن يؤكد أن صاحب الخط قد دخل السجن أو لم يدخله إلى آخر ماهو معروف عنه الخ . »

وكانت لبقة فى محاضرتها ، وكان أسلوبها طريفا حتى كدت أغير رأيى فى الموضوع فقلت لها :

« وهل لديك إجازة فى هذا العلم »

« نعم . . وقد درست على الاستاذ . . . . الحجة الثقة صاحب المؤلفات العالمية فى هذا العلم . »

« وهل أنت على ثقة الآن لعمل تجربة أمامى ليطمئن قلبى لهذا العلم ؟ »

« نعم ! »

فوضعت يدى فى جيبى وأخرجت كتابا لإيرينا ، وسلمته اليها لتفسره لى .

تناولت الكتاب ، وألقت نظرة سطحية عليه وسألتنى عن سن الكاتبة ، ونهضت من مكانها وذهبت إلى المكتب ، وأخذت قلما من الرصاص وشرعت تخطط على الكتابة خطوطا خفيفة ، ثم تناولت ورقة بيضاء وكتبت فيها ملحوظاتها عن الحروف المتقطعة وعن وضع النقط بالنسبة للحروف ، والنقط المنسية ، وغلاظة الحروف ودقتها إلى آخر ما يتطلبه الفحص ، ثم كتبت تقريرا عن صاحبة الكتاب (إيرينا) من عشر نقط ، عن أخلاقها ، وثقافتها ، وعاداتها ، ومزاجها ، أما النقطة العاشرة فلم يكن فيها شىء من ذلك ، بل جاء فيها أنصحك إذا كنت تفكر فى الزواج من هذه الفتاة أن لا تقدم ، لأن زواجكما لن يكون سعيدا ، وستضطر لخيانتها . »

أما النقط التسع الأولى فكانت مطابقة تمام المطابقة لأخلاق ومزاج إيرينا ، وكأنما كانت تعرفها من أيام الدراسة حتى استطاعت أن تقول عنها ماقالته فيها ، أماما ذكرته فى النقطة العاشرة فقد أدهشنى وبلبل رأسى ، ولم أدر على أى شىء بنت نصيحتها تلك ، فقلت لها :

« ما معنى هذا الذى كتبته ؟ وكيف أضطر لخيانتها ؟ وليست الخيانة من طبعى ، وعدا ذلك فأنا أحبها . » فأجابتنى :

« لا أستطيع أن أصرح لك بأكثر من ذلك ، وكرجل طاف العالم كان يجب أن تفهم إشارتى ، أما ورأسك مغلق من هذه الناحية ، فربما كان ذلك من

الخير لك . . . . »

ألححت عليها أن توضح لى إشارتها فأبت ، وانتقلت بالحديث الى الغرض الذى جاءت من أجله :

« لعلك عند اعتقادى فيك ، وأنك لن تبوح بسرى لأحد ! » .

فجددت صورة الرجل المسكين أمام عينى وهى تجهز عليه فاشمأزت نفسى وأجبتها بلهجة فيها شىء من الازدراء :

« إن سرك الخطير يا سيدتى لا يهمنى فى شىء . »

« لا تؤاخذنى اذا تحدثت إليك فى صراحة ، إن فى الأمر محتملات كثيرة أنت رجل رقيق الحال ، ولا أحب أن أقول إن جائزة البوليس قد تغريك ، ولكنك متعصب للعدالة ومتمسك بالصدق كما فهمت وأخشى أن تقنع نفسك يوما ما بأن فى إفشاء هذا السر خدمة للعدالة أو أن . . . . »

فقاطعتها متململا : « نعم أنا رقيق الحال ، ولكنى لا أبغض شيئا بغضى للمال ، ومتعصب للعدالة ، ولكنى لم آت إلى هنا لأنصب نفسى حارسا على العدالة فى برلين . . ولكن تأكدى من شىء واحد ، وهو أنى لا أكذب ، ولن أكذب ، إذا أنا سئلت عن سرك من أية جهة كانت . »

فضحكت ضحكة الرجل الذى يهزأ من حديث طفل ساذج يتحدث إليه : « يظهر أنك لم تستفد كثيرا من محنتك ، ويجب أن تطول أكثر من ذلك حتى تتعلم الكذب عند الحاجة إليه ، على أية حال أنا قانعة بوعدك وسآخذك به . »

هذه ليست بامرأة ، هى رجل قاس ، لا ، بل وحش ضار ، ليكتب الله السلامة لمعارفها من براثنها !

ثم تذكرت فجأة كتاب صديق هرشفرين إلى فسألتها : « آه ، بهذه المناسبة ، لعلك تذكرين أنى اتصلت بك تليفونيا على أثر وفاة هرشفرين ، وسألتك عن

شخص اسمه فكتور شراير . يهمنى الاستدلال على هذا الرجل . فهل لك أن تساعدينى على معرفة عنوانه . إن المسألة تخص بوصية للهر شفرين . لعلك تعرفين عنها شيئا ؟ »

فأبدت استغرابها : « لا ، لا أعرف هذا الشخص كما ذكرت لك يومئذ على التليفون ، وليس للهر شفرين وصية ، ولا ترك شيئا يوصى به . وإذا وجد شىء من ذلك فأنا الشخص الوحيد كما علمت الذى كان يجب أن يحاط به علما . إذا لم يكن لديك مانع ، اذكر لى القصة كلها لأبصرك بما أعلم . »

فقصصت عليها قصة الجواب والمائة مارك إلى آخر ماذكرته فى فصل سابق.

فسعلت وانتصبت فى مكانها ثم أخذت تستنطقنى : « اذكر لى أسماء أصدقائك الأقربين وعلاقاتهم بهر شفرين . »

فأجبتها على سؤالها ، فقالت :

« هل تذكر الذين قابلتهم منهم يوم وفاة الرجل . وشيئا مما دار بينكما من مختلف الأحاديث ؟ »

فقصصت عليها كل ماحضرنى وقلت فيما قلته : « إن إيرينا سألتنى فى ذلك اليوم عن حالى فقلت لها ، على أسوا ما يكون . وأشرت لها بأصبعى إلى فمى »

فقالت المرأة الداهية : « كفى ! كفى ! لاتزد شيئا . هذه الورقة المالية من إيرينا . ولا أدرى كيف لاتفقه هذا طول الوقت . هى تحبك ، وتريد أن تساعدك . وتخشى أن تجرح إحساسك ، فاحتالت على ذلك بتزييف هذا الكتاب . »

فقلت فى سذاجة ودون تفكير : « أنا لا أريد مساعدة من أحد . ويل لها منى لقد كشفت عن بصرى وأريتنى هذه الفتاة عارية . الآن أدركت مسألة

الأعلان . وفهمت مسألة الاشتراك فى طعام الغداء . » وقصصت عليها القصة من الألف إلى الياء .

ضحكت الخبيثة وقالت . « ألم أقل لك أنها تحبك ، وتخشى أن تجرح إحساسك قبل أن أعلم شيئا مما ذكرت . وأقسم لك أنها دفعت أجر الأعلان من جيبها ، وأنها تخسر فى الطعام الضعف على الأقل . »

« حسبك ! إن شرحك وتعليقك يؤذينى . »

ضحكت المرأة حتى كادت تستلقى على قفاها : « إيرينا عندها حق أن تغرم بك ، فأنت على ما أنت عليه من أدب ، طفل بريء ، ومن من الناس لايحب الأطفال ؟ »

« أرجوك ، أرجوك ! . . . »

فقاطعتنى : « لقد أزف الوقت . أنا ذاهبة . لعلك تزورنى قريبا . أنا فى البيت تقريبا كل ليلة عدا ليلة الجمعة . تعال نسل بعضنا . عندى مكتبة لابأس بها ستعجبك . وراديو يسمع من الخارج . ولا تخش الظمأ فعندى ألوان طيبة من الشراب يحسن أن تضرب لى تليفونا قبل قدومك لانتظارك . أو رفوا راءوانصرفت

* * *

لابد من تسوية الحساب على عجل مع المحسنة الفقيرة . نحن لا نريد معروفا ولا إحسانا من أحد . وحسبت نقودى فوجدتها لا تكفى ، فنظرت حوالى فى الغرفة فلم أجد غير كتبى ، فمر برأسى خاطر مرور البرق ، فطردته عازفا متقززا من نفسى . كل شيء على الأرض من حرام وحلال ومكروه ومستحب إلا التفريط فى مكتبتى . سمِّ هـذا أيها القارىء ضعفا ، أو غرورا ، قل فيه ما شئت . . . . . وأمكننى فى الحال أن أضع سدا منيعا بين هذا الخاطر وبين رأسى فكأنه لم يكن ، وعدت أدور بعينى فى الغرفة . فوقعت على ماكينة الكتابة . هذه

هدية الآنسة ما كسوينج لى قبل رحيلها إلى فرنسا وليس من العدل ولا الوفاء لهذه الآنسة أن أتصرف فيها ، وقد مرت بى أزمات جسام لم أفكر فيها فى شىء من ذلك . ولكن أزمة اليوم عندى تفوق كل ماسبقها . أزمة تتعلق بكرامتى . فتاة فقيرة ترهق نفسها لمساعدتى . هذا مالا أطيقه ولو كلفنى ما كلفنى . إلى محل شراء الآلات الكاتبة . . . . وهناك عرض علىّ المشترى ١٥٠ ماركا فقبلت البيع . ولكنه طالبنى بورقة الشراء . فأفهمته أنى اشتريتها من القاهرة . فقال لى إن هذا لا يمنع . لأن قانون الرايش الجديد يحتم على البائع والراهن تقديم مستنده بملكية مايريد أن يتصرف فيه منعا للسرقات . فبحثت فى محفظتى فوجدت « الفاتورة » لحسن الحظ بها . وتمت الصفقة فى الحال . . .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى إيرينا لتصفية الحساب معها . واجتهدت أن أضبط أعصابى بقدر الأمكان . فلم ينم وجهى عما أكنه فى صدرى من الحنق والغضب . وبعد محادثة قصيرة قالت :

« أنت ضيفى اليوم . طعام اليوم لا يدخل فى الحساب . أظنك لا ترفض دعوتى . وأحب أن أفاخر بمائدة اليوم ، لذا أرانى مضطرة أن أقطع حديثنا من وقت لآخر لمباشرة الطعام . ليتنا نجلس اليوم معا فى المطبخ لأكون على مقربة من العمل ! مطبخى نظيف . وقد عنيت فى الصباح الباكر بتنسيقه بصفة خاصة حتى يليق لجلوسنا وبفكرة أنك ستقبل اقتراحى ، والانتقال إليه . »

« ليس لدى مانع . »

وانتقلنا الى المطبخ ، وأخذنا معنا بعض الكتب الحديثة . فوجدته حقا آية فى النظافة والترتيب . يدخل جوه على النفس الحبور ، فأوانى الزنك والنحاس والمعدن والزجاج والبورسلان الغالى تتخيلها تضحك من شده بريقها ، وقد صفف كل نوع منها على حدة ، وروعى فى صفه الأحجام والأقدار كذلك

ولم تنس إيرينا أن تزين المائدة التى أعدتها للجلوس بآنية من الزهور تحتها غطاء أبيض ثمين قد طرزت حواشيه يد فنانة . وقد أعدت لطعامنا طيوراً ولحوما وصنوفا من الخضراوات مختلفة .

مدت يدها إلى خزانة فى الحائط وأخرجت منها (مريلة) زرقاء فاتح لونها وارتدتها فوق ثوبها ، ولم أكن رأيتها فى هذا الزى قبلا فزادتها حسناً على حسنها . قالت ضاحكة وهى تبتسم :

« لا تضحك منى . . » لامفر من هذا اللباس الآن . ستتعوده عيناك بعد قليل ، ومتى انتهيت من عملية الطبخ أصلحت ما أفسدته . مالوجهك قد تغير ؟ ترانى قبيحة إلى هذا الحد فى (مريلتى) الزرقاء ؟ »

فعدت إلى نفسى وقلت لها : « لا ، لا ، إن جمالك يتجلى جديداً فى كل ثوب تلبسينه . تعالى اجلسى إلى قليلا بهذه الملابس »

وجلست تتحدث إلى ، وقامت ، ثم عادت فجلست لتستريح وتتسامر ، وقامت لمباشرة الطعام فكانت رشيقة فى حركاتها ، ماهرة فى عملها ، على جانب عظيم من النظافة .

قالت وهى ذاهبة إلى مائدة مستطيلة بجوار النافذة موضوع عليها بعض الخضراوات فى صحن كبير من القيشانى الغالى المملوء ماء : « أنا أقول لك لا تستهتر بطهيى ، لقد تعلمت فيما تعلمته بجانب الموسيقى والمسرح والأدب فن الطبخ وكنت مبرزة فيه . » ورفعت الصحن بيدها واتجهت به إلى الناحية الأخرى من الغرفة .

وكنت قد مثلت دورى إلى تلك اللحظة أحسن تمثيل فلم يبد على مايريب ولكنى لم أعد أطيق التمثيل أكثر من ذلك ولا عاد فى الامكان أن أضبط نفسى لحظة واحدة أكثر من ذلك ، وأحسست الزمام يفلت من يدى ، فلم يبق إلا أن ألقى بالقنبلة التى أعددتها ، فقلت لها وهى فى منتصف الطريق تحمل هذا الصحن

« لم يكن يدور بخلدى أنك تكذبين يوما ما على الأموات . وتتخذين منهم سلما لتحقيق أغراض فى نفسك ، إن هر شفرين لم يوص بشىء ، لأنه لم يكن يملك شيئا يوصى به ، وهر فكتور شراير هذا من نسج خيالك ، وأنت .. انت التى بعثت لى بهذا المبلغ . »

فوقع الصحن بالخضار والماء من يديها فتناثرت أجزاؤه على الأرض هنا وهناك ، فلم أشفق عليها بل سرت فى حديثى وهنا بدت نغمة الغضب فى صوتى واضحة : « ليس هذا كل سرك يا سيدتى لم يكن لك حساب فى جريدة يدشى روندشاو كما زعمت ، ولكنك دفعت أجر الأعلانات من جيبك ؟ ووجبة الغداء التى تقدمينها إلى تكلفك أضعاف ما تطلبين فيها . ولا إخالك تخاتلين بعد أن انفضح سرك . غير أنى أحب أن أعرف الدافع لك على فعل كل هـــذا معى . . . أنت لا تجيبين ! ؟ أنا أقول لك فى صراحة أن كان صنيعك معى على سبيل الرحمة والعطف فقد أخطأت ، بل أسأت إلى . فأنا أبغض كلمة الرحمة ، وعلى الأخص إذا كنت أنا المقصود بها ، فأنا لا أحب أن أكون محل رحمة إنسان كائنا من كان . أية ذلة أيتها الآنسة قد ألبستها هذا الرجل العاصى الجالس أمامك ، إن الرجل الذى يسأل الرحمة أو يتقبلها من قوى رجل ضعيف ليس جديراً بالحياة ، وأضعف منه وأحقر من يتقبل الرحمة من ضعيف . وانت فتاة ضعيفة جديرة بالعطف والرحمة . لقد أوجدت بيننا فجوة يعز عبورها . »

لم تلفظ إيرينا لفظا واحداً ، ولا تحركت من مكانها ، غير أن جسدها كان يرتعد ، ولونها شحب واصفر . فأخرجت ظرفا من جيبى ووضعته على المائدة وقلت لها مشيراً إليه .

« هذا مالك مردود اليك . ولعل فى هذا درسا لك حتى لا تسيئى فى المستقبل لمن احبك ولم يسىء اليك .. »

« هذا مالك مردود اليك ولعل فى هذا درسا لك حتى لاتسيئى فى المستقبل لمن أحبك ولم يسىء إليك : . . »

وتركت الغرفة غاضبا

فقالت فى صوت ضعيف تخنقه العبرات :

« اصغ إلى ! »

ولما لم أصغ اليها صرخت :

« فلان ! فلان ! انتظر ! اصغ إلى . »

ولكن قدمى كانتا فى عتبة الباب الخارجى فلم أعد أسمع صوتها .

وانقضى أسبوعان على هذا الحادث لم ير أحدنا أخاه فيهما ولا كتب له ، لا ولا استفسر عنه . والزمن أفضل طبيب كما يقولون . فقد هدأت فى هذه الأيام ثائرتى . فحاسبت نفسى على مابدر منى نحو إيرينا ، والتمست لها عذراً ، وابتدأت أحن للقائها ، فكتبت لها كتابا فسرت فيه تصرفاتى ، وأعتذر لها عنها . والعجيب أنه وصلنى منها كتاب اعتذار فى نفس الوقت الذى وصلها فيه كتابى ، فكأن كتابينا تلاقيا معا فى منتصف الطريق أو فى دار البريد قبل أن يصلا إلى أيدينا ، فوصلنا ما انقطع بيننا . . .

ولاحظت على أنى كثيراً ما كنت أغرق فى تفكيرى فى أثناء اجتماعنا ، ويتجهم وجهى ! وتنطبع على صفحته آيات الحسرة والمرارة على غير ماعهدته فى . فكانت تسألنى عما يشغلنى فأجيبها : « لاشىء . »

وألحت على مرة فى معرفة السبب فقلت لها :

« أظن الوقت قد حان للمصارحة . إلى متى تنفرين منى ؟ ألا ترين فىّ ندا لك ؟ وإلى متى تظل هذه الحالة قائمة ؟ أحب أن أعرف أخيراً أأنت لى وحدى أم أن لى شريكا فى قلبك ؟ »

فقالت وهى تضحك ضحكة مصطنعة : ألم تقل لى أن قارئة الخطوط حذرتك من الاقتراب منى أو التفكير فى ؟ »

قلت : « دعنا من هزل هذا الوحش . إن الموقف جد ، ولم أعد أطيق صبراً على استمرار هذه الحال . »

« لا تقل هزلا . فالمرأة على حق . »

فصمت وفى القلب حسرة لأنى حسبتها تهزأ منى .

فتنهدت من أعماق قلبها وقالت : « أنا أحس آلام نفسك . وأنا متألمة جدا لألمك . ولكن الطبيعة التى أسبغت عليك نعمة الصحة والكمال ، أبت إلا أن تحفر بيننا هوة لا يمكن عبورها فكونتنى تكوينا لا أصلح معه للزواج ، هذا هو سرى احتفظت به لنفسى ، وكنت أحسب أنى سأظل أمينة عليه طول حياتى ولكن الأمور قد بلغت بيننا حدا لم يبق معه إلا خيانة هذا السر ، فاعذرنى وسامحنى . » وغطت وجهها بيدها وبكت وانتحبت كما يبكى الطفل الجريح .

فاستعدت كلماتها فى نفسى مرات وتفهمتها . وأدركت كلماتها وما تنطوى عليها فتحركت مشاعرى وحنوت عليها ألاطفها وأطيب خاطرها .

فقلت لها : « لا تحزنى ، فأذا كانت الطبيعة قد انتقصت منك شيئا فقد أغدقت عليك بكرم فى نواح أخرى . فجمالك الفاتن ، وعقلك الراجح لما تحسدك عليهما كثيرات من الفتيات . وإن حبى لك لن ينتقص منه شىء مما قلته لى ، ولن تفرق الأيام بيننا ، وحسبى منك أدبك ، ورقة مشاعرك ، وكرم خلقك لا تعلق بك . اضحكى يا إيرينا ! ولنذهب الليلة إلى إحدى دور السينما معا . »

« لا تحسبنى على رغم تقصير الطبيعة معى باردة المزاج ، فأن دمى ليغلى فى عروقى شوقا إليك ، وأنا أشوق منك إلى مقارعتك كؤوس السعادة . ولو كان ارضاؤك ، وإشباع رغبتك مما يشترى ، لما بخلت بشىء فى سبيله وانى لأبيع عن

طيب خاطر عشرة بل عشرين عاما من حياتى فى نظير ساعة واحدة أهبك فيها كل ما تطمع فيه . . ولكن . . »

« إيرينا ! سامحينى فيما مضى . فلقد قسوت عليك لجهلى ، وعمى بصيرتى وثقى بحبى لك ثقتك بحبك لى ، وسنجد فى المستقبل أعمالا كثيرة نافعة تنسينا ماعداها من الهواجس . تهيئى للخروج معى الساعة لتتريض قليلا . . »

ومسحت إيرينا عينيها ، وتفننت فى زينتها أكثر من ذى قبل ، فكانت كالعروس فى ليلة الزفاف ، وتأبطت ذراعها وأخذنا القطار إلى إحدى الضواحى . وهناك قضينا بضع ساعات فى الغابة المحيطة بالضاحية . فسرى عنا هواء الغابة كثيرا . وعدنا على أن نلتقى كالعادة لأنجاز الكتاب الذى لم يبق على إنجازه غير الخاتمة ، ولنبدأ عملا جديدا .

وفكرت فى الليل وأنا راقد فى سريرى فى قصة هذه الفتاة ، واستذكرتها من أول معرفتى بها إلى اليوم ، فرثيت لحالها ، وشد ما كانت دهشتى عظيمة عندما اكتشفت أن الهوى المبرح الذى كنت أحسه نحوها فى قرارة نفسى حتى صباح اليوم ، والذى لقيت من أهواله أشد مما لقيته فى غربتى من الأهوال . قد انقلب إلى ضرب من العطف والرحمة . وتداعت الأفكار بعضها بعضا فمرت الفريدا فى خاطرى ، واستذكرت قصتها كذلك ، وسألت نفسى : ترانى بقيت أحبها بعد أن دبت الفرقة بيننا ، وإذا كنت قد أحببتها ، فكيف أحببت إيرينا مع حبى لها ، وهل فى طاقة إنسان أن يجمع بين حبين فى وقت واحد ؟ وأجبت نفسى على أسئلتها ، ورددت على إجاباتى . ثم تساءلت ما إذا كنت لا أزال أحب الفريدا ؟ وخرجت من هذه الاسئلة جميعها بأن الأنسان لا يستطيع أن يحب شخصين فى وقت واحد ، حبا من نوع واحد ، وأن حبا منهما لابد أن يطغى على الآخر فيضعفه بل وقد يلاشيه . وأن

حبي لألفريدا كان حبا يختلف كل الاختلاف عن حبي لإيرينا . فالأول كان حبا يغذيه القلب والعقل معا ، فهو حب ثابت لا تزعزعه الأيام إذا تعذرت الزيجة فيه ، كما تعذرت ، وسنظل أصدقاء مخلصين على البعد والقرب ، تراسلنا ، أو تقاطعنا ، فهو أقرب للصداقة الخالصة ، والود المكين . . أما حبي للثانية فكان حبا يغذيه القلب فقط ، حبا وقوده الجرى وراء إشباع الرغبة الملحة ، لذلك كان حبا جياشا وحشيا خطرا ، لو طال أمده قليلا ، لأودى بحياتى ، أو أطاح رشدى ، وبعث بى ضيفا على دار المجانين .

وتعجبت من فشلى فى المرتين فى حبي . هاتان الفتاتان لا شك زهرتان من زهور برلين النادرة البديعة ، قل أن يقع أجنبي ، وعلى الأخص فى مثل حالى ، على مثلهما فى الجمال ومتانة الخلق والمعرفة ، فكيف يكون حظى معهما كذلك ؟ وتساءلت ترى فى العمر بقية لمغامرة جديدة ؟ وقدرت ظروفى ، ومواضع ضعفى ، وأدخلت فى حساب ما أطمع فى أن تكون عليه فتاتى وخرجت بالنتيجة الآتية :

ـ لا ، لن توجد فتاة ثالثة تقوى على فتح مغاليق قلبي أو غزوه . نعم إن قلبي فتىّ لم تحطمه الأحداث ، ولكن هيهات أن أجد التى تساهم فى النواحى الطيبة التى تساهم فيهما الفتاتان ، وأن تزيد عليهما فتساهم معى فى الغاية التى أرمى اليها فى الحياة . . وعلى ذلك قررت بينى وبين نفسى أن أجعل هاتين المغامرتين ، وهما المغامرتان الوحيدتان فى هذا الباب آخر مغامراتى . وتحمست لقرارى هذا ومسحتهما فى خيالى من فصول (فلم) حياتى العجيب ، وعددتهما شيئا أشبه بما يقال أو يلعب بين الفصول مما اصطلح عليه الفرنجة بكلمة (انترمتسيو) .

وفى الصباح الباكر جاءنى كتاب من إيرينا بالبريد المستعجل جاء فيه :

ليس للحب دواء غير الزواج ، فاذا تعذر هذا العلاج ، لم يبق أمام صاحبه إلا انشداد السلوة فى ركوب الأسفار .

أنا فى طريق إلى فينا . أسألك المعذرة ، وأرجو لك الهناء . .

* * *

فلم يبق أمامى الا أن أطوى صفحة هاتين المغامرتين ، وأعود إلى مراقبة فصول الرواية . . وحز فى نفسى فشلى فى الحياة ، فاعتزلت الناس لأستجمع قوتى لمنازلة الأحداث عند أول فرصة تسنح فيها الساعة المناسبة للنزال . .

حنين الى الوطن

وتسللت الأيام تارة ، وتارة جرّت نفسها جرا ، وانقضت الأسابيع على قصرها وطولها ، وتبعتها الشهور فالأعوام . وأنا صابر على محنتى ، منكب على القـــراءة ، والدرس ، والتدريس ، وزيارة الملاهى والضواحى كلما سنحت لى فرصة . . . . وأقمت سدا بينى وبين المصريين فى المانيا وفى مصر . فلم أكتب لأحد ، ولا زرت أحدا ، لا ولا سلمت على أحد منهم . . . ومرضت وعوفيت فى غضون ذلك ، وجعت وشبعت ، وفرحت وتألمت . ولكن أحدا من مواطنى لم يسمع بشىء عما أعانيه ، ولا لحظ على أحد غير النظافة وحسن الهندام .

مرت الأيام ، ومرت الشهور ، ومرت السنون . وجاء عام ١٩٢٦ واقترب موعد « الأولمبياد » ، وابتدأت مدينة برلين تستعد لاستقبال ضيوفها من أنحاء الأرض من لاعبين ، ومتفرجين ، وأفاقين ، ومغامرين ، وصحفيين ، ودبلوماسيين ، وكلما اقترب ذلك اليوم ، وقعت أنظار سكان برلين على وجوه جديدة ، وسحن عجيبة . وسمعت آذانها لغات ولهجات مختلفه . واكتظت البيوت بالنزلاء ، وازدحمت السبل بالمارة . وعجت المقاهى بالزوار ، حتى صعب السير راكبا أو راجلا ،

وتعذر الجلوس فى المقهديات لشدة الزحام . . . وظهرت العمائم والعباءات ، والطرابيش بين القبعات والقلانس . ورأينا البيض والسود والصفر قد تجمعوا فى هذه البقعة من الأرض ، فخيل لنا أنه قد نفخ فى الصور ، وأن الناس قد جاءوا من كل فج ليقدموا حسابا عما اقترفوه فى حياتهم الدنيا . . .

وخرجت فى إحدى الليالى من دارى وأخذت أتنقل من مقهى إلى مقهى باحثا عن مكان أستريح فيه بعض ساعة ، أروح فيها عن نفسى بسماع شىء من الموسيقى بعد عناء اليوم ، فلم أجد محلا شاغرا للجلوس . وأخيرا بلغت فى تطوافى مقهى أولاندلك ، فلمحت فيه مائدة يجلس عليها رجل وحده ، فسلمت واستأذنته فى مشاركته فى المائدة فأذن لى . ولم يكد يستتب بى المقام ، حتى سمعت ناسا على المائدة المجاورة يتكلمون العربية ، فانتفضت فى مكانى ، وأصغيت اليهم فتحققت أنهم مصريون . فزحزحت كرسى إلى الوراء قليلا ، وحددت أذنى متتبعا لما يدور بينهم . فعلمت من حديثهم أنهم من الطبقة الوسطى ، وأنهم موظفون فى الحكومة ، وقد جذبتهم رحلة الأهرام مع من جذبته لزيارة أوربا . وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث بينهم بصوت عال ، يضحكون ويتأرجحون على كراسيهم ، ويومئون بأيديهم ورءوسهم . وكان حديثهم غثاً رخيصا ، ولكنى أبيت أن يفوتنى منه حرف واحد . . . ثم أخذوا يسردون مغامرتهم فى الليلة الفائتة ويتساءلون عما سيفعلونه فى ليلتهم . . . ثم قال أحدهم بعد أن شهق وزفر :

« لو قدر لى الغنى لهجرت مصر إلى الأبد ، وسكنت فى أوربا . »

فرد الثانى على نفس لم يأخذه : « اللهم أحينى وأمتنى فى هذه البلاد ! »

وقال الثالث وهو يتطلع إلى دخان سيجارته : « عندكما حق ، فما أقسى الحياة فى مصر ! » .

فدق الرابع بيده على المائدة صائحا : « ماذا تقولون ؟ أنا لا أفضل أوربا

على مصر إلا بحسانها الشقراوات ، لاتضحكوا منى . فنحن إذا استثنينا حسان أوربا بزت مصر بلاد العالم بخبراتها وجوها وكل شيء آخر . هذا هو السر الحقيق لحبنا لأوربا . أنتم تضحكون . أنتم تضحكون . أنتم أحد اثنين: منافقون أو عجزة . أما أنا فصريح وأقدر منكم على التعبير عن إحساساتى ، فأنا شاعر كما تعلمون . »

فقال الثالث متحمسا : « أو تظن أوربا تفضلنا بالشقراوات فقط ؟ والعلم؟ والأخلاق ؟ والشئون الصحيه ؟ آه ، هيهـــات أن نصل فى مصر إلى عشر معشار ماوصلت إليه أوربا . إن كل شيء فى مصر قد تعفن ، ولم يعد يرجى لبلادنا صلاح . »

وكأن سلكا مكهربا قد مسنى ، فأنتفض فى مكانى فأقول لنفسى بالعربية بصوت أسمعه . « تباً لهؤلاء الأبناء ما أعقهم ! » . ولكن أحـــدا لم يسمعنى فأغتاظ وأرفع صوتى بعض الشيء ، وأدير كرسى ، وأوجه لهم الكلام .

« أمن الرجولة أيها الناس أن تتخلوا عن أمكم إذا مرضت ؟ كنت أحسبكم بررة أوفياء لأمكم مصر ، تعملون على تطبيبها ، وتردون لها دينها عليكم . . نعم لايرجى لمصر صلاح على يد أمثالكم . ولكن من قال أنكم أنتم كل من فى مصر ؟ إن فى الكنانة رجالا وشبابا إذا دقت الساعة نهضوا بالبلاد إلى المستوى اللائق بها بين شعوب الأرض . أرجو أيها السادة أن لا يكون هذا رأيكم ، وأن تكونوا مازحين . »

فبهتوا لحظة من الزمان ثم صاحوا : « حضرتك مصرى ؟ »

« لا ! »

« ولكنك تتكلم العربية بطلاقة . ولهجتك مصرية »

« ربيت فى مصر وعشت فيها زمنا طويلا . فأحببتها وأحببت لغتها . »

فبدت الدهشة على وجوههم ، وأخذوا يرتابون فى أمرى :

« أألمانى أنت ؟ »

« لا ! »

« فما عسى أن تكون جنسيتك ؟ »

« لاجنسية لى »

يضحكون : « قل شيئا غير هذا ، نحن لانفهمك . »

« ولكنها الحقيقة . »

« وأبوك ماجنسيته ؟ »

« مصرى . »

« وأمك ؟ »

« مصرية . »

« ومسقط رأسك ؟ »

« مصر »

« وكيف لاتكون مصريا ؟ »

« بحكم القانون . »

« نحن لانفهمك . ما أسمك ؟ »

فكادت العبرات تسيل من عينى لولا أنى أمسكت نفسى فقلت لهم بصوت المذبوح : « لاتهتموا كثيرا بشخصى . . . عودوا بنا إلى الحديث عن مصر ، أحب أن أعرف شيئا عنها . كيف حال الأحزاب فيها ؟ وماذا جد فيها ؟ وهل بينكم من يعرف الغناء فيتفضل علىَّ بشىء مما يغنى فيها الآن لعلى أسأت إليكم ، أرجو معذرة . لقد احتسيت الليلة كثيرا من الخمر فلم أع ما أقول . أسألكم المعذرة . . » وكان صوتى قد أخذ فى الخفوت حتى لم يعد مسموعا لهم .

فتأثروا لحالى ، وحاروا فى فهمى ، وأخـــيراً ضرب شاعرهم بيده على

obeikandl.com

جبينه ، ثم نهض واقفا ، وشد على يدى قائلا : أنت فلان الذى جرد من جنسيته، أليس كذلك ؟ أنا أعرف اسمك من الصحف ، فقد كتبت عنك كثيراً . . . »

. . . . وطلبوا إلى أن أنتقل إلى مائدتهم ، فانتقلت إليهم ، فتلطفوا معى ، وأكرمونى ، وأكرمت ضيافتهم بدورى بقدر الطاقة ، ثم رجونى أن أقضى معهم الليلة ، لاسيما وأنها آخر لياليهم فى برلين ، فلبيت رجاءهم ، وكان بينهم فتى يحسن الغناء فأنشد لى شيئا من أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب الجديدة مما فاتنى سماعه بسبب غربتى ، ولما آن فرط عقدنا طلبوا إلى أن ألقاهم فى ضحى اليوم التالى حيث يزمعون السفر ظهرا ، فسألونى :

« هل نستطيع أن نقوم لك بخدمة فى مصر ؟ »

« نعم ! »

« نحن على أتم الاستعداد . هات ماعندك ! »

ليكتب أحدكم للعجوز يقول لها إنه رأى ولدها فى برلين متمتعا بالصحة. وأنه يهديها تحياته » وكتبت لهم عنوان أمى . وسلمت ، وانصرفت .

* * *

أثرت فى نفسى هذه المقابلة ، وأثر فيها هذا الحديث ، وحننت إلى مصر ، وأهل مصر ، وتراب مصر ، وكل شىء فى مصر ، وودت لو بكيت لأخفف عنى هذه اللوعة التى انتابتنى ! هؤلاء المواطنون مزمعون على الرحيل غداً ، وبعد أربعة أيام خمسة سيطأون أرض الوطن ، ويجلسون إلى أصحابهم ويتحدثون مع آلهم ، وسيكون حديثهم بالعربية . . . . وأنا ؟ أنا باق هنا فى منفاى غريبا ، شريدا ، مهيض الجناح ، مكسور الخاطر ، وإلى متى أنا باق فى هذه البلاد ؟ إن الذى أجرى علىّ حكمه ، قضاه الى الأبد ، إلى أن أموت ، لا ، بل إنه لم يحدده

بزمن ، فقد يأتى الفرج اليوم ، وقد يأتى غداً ، وقد استحثثت هـذا الفرج ولكنه لم يأت . . .

أخذت طريق إلى الدار مطأطىء الرأس ذليلا ، وخلعت ملابسى، وحاولت أن أقرأ كعادتى ، فسقط الكتاب من يدى ، وخنقنى الأسى ، آه . أود أن أبكى! ولكن هيهات البكاء ! فأدفن رأسى بين كفى تارة ، وتارة أرفعه ، ولا أكاد أستقر فى مكانى حتى أنهض منه ، ربّ هذا لا يطاق ! فأتمدد على فراشى فسرعان مايسخن الفراش تحتى ، فأضع رأسى مكان رجلى ورجلى مكان رأسى ، فأحس النار تضطرم فى جسدى ، ويجف ريقى ، فأثب من الفراش ، وأبلل رأسى بالماء البارد ، وآخذ منه جرعة . . . أيها الناس ألا من سبيل للعزاء ؟ نحن الآن فى الهزيع الأخير من الليل ، وكل شىء حوالى هادىء ، سأصرخ طلبا للنجدة ، وأقلق الجيران والمارة ، فأنا بشر أتعذب ، ولم أعد أطيق هذا العذاب ، يتيم ضال ، لا أب له ولا أم ولا طبيب ولا مواس فى مفاوز الجحيم ، آه ، لو أسعفتنى الدموع لهدأ ثائر نفسى ، ولكنها عصيّة ، متآمرة مع الأقدار على !

هذه ليلة بشعة قاسية لن أنساها . . . لم يشهد أحد من الشهداء أبشع وأقسى منها ، انقضت بعد أن كادت تقضى على ، وقمت فى الصباح مثقل الرأس مهدما ، فلم أحسن فى نهارى عملا ، وجن الليل ، فارتعدت فرائصى ، وأخافنى هول الليلة الفائتة ، فهجرت غرفتى ، وقضيت ليلتى فى استديو أحد الأصدقاء مع جماعة من الفنانين .

لابد من نهاية لهذا الألم ولهذا العناء ، وليس من الرجولة الاستسلام للعاطفة ، ولو ضبطت نفسى ، وهيمنت على أعصابى ساعة واحدة ، سأجد لى بلاشك مخرجا من ورطتى ، فألى الهواء الطلق ! إلى الضواحى ! وهناك سأفكر فى المخرج فى هدوء ، وأخذت القطار إلى الخلاء ، وجلست وحدى فى أحد

القاهى ، وقلبت الأمور على جميع نواحيها ، فخرجت بالنتيجة الآتية :

ليس فى مصر ما أخشاه ، فلأعالج الفرار من منفاى ، ولأدخلها كما يدخلها أفاقو الفرنجة ، ولست أقل منهم حيلة وتدبيرا ، وإذا أنا وضعت قدمى على أرض الوطن ، فلن يستطيع أحد إقصائى

وصحت عزيمتى على الفرار إلى مصر ، فنهضت فى الحال من مكانى وعدت إلى المدينة ، ودخلت فى أول مكتبة فى طريقى ، واشتريت خارطتين إحداهما لألمانيا والأخرى لمصر ، وقصدت إلى غرفتى ، ونشرت الخارطتين على مكتبى ، وأمسكت قلما أحمر ، وأخذت فى درس حدود البلدين بدقة

وفى المساء زرت أحد الأطباء وكان صديقا لى وتلميذا ، وكان موضع ثقتى وتقديرى ، فبثثته آلامى ، وكاشفته بسرى ، وسألته الرأى والمعونة ، فتألم الرجل لألمى ، وقال لى : « ليس الأمر بالهين لنقضى فيه قضاءنا الساعة ، فالطريق وعر ، وعيون رجال البوليس الألمانى يقظة ، ومن يدرى إذا أنت تغلبت على متاعب السفر فى أوربا أن تضمن السلامة فى الموانىء المصرية . لابد من التفكير طويلا ، وقتل الموضوع بحثا قبل الأقدام على التنفيذ ، فالفشل سيجر عليك متاعب لا يدرى إلا الله وحده كيف يكتب لك الخلاص منها ، تمهل ، وأمهلنى أياما لأفكر فى الأمر . »

« لا أمهل نفسى ، ولا أمهلك ، فقد ضقت بهذه الحياة الراكدة ذرعا ، ولا أحب أن أنفق فى منفاى كما تنفق الحشرة فى جحرها ، إن كنت صديقا لى بحق فلنقطع فى الأمر الساعة ، وإذا اقتضت الحال فلنقض الليلة فى التفكير . »

صمت الرجل طويلا ثم قال : « أنا مقدر ظرفك ، أنت محق ، أنت معذور اصغ إلى ، يلزم لمثل هذه المغامرة التسلح بالمال ، والاتصال ببعض الجمعيات

السرية او عصابات التهريب . أما المال فأنا مستعد لبذل ثروتى من أجلك عن طيب خاطر ، إذا كان فى بذلها إنقاذ لرجل مثلك . وهنا أخذ صوته يضعف وهو يقول: « أما الجمعيات السرية فليس لى بها أية صلة مباشرة أو غير مباشرة . غير أن لى صديقا مهندسا اسمه ج . أعلم أنه يعمل فى جماعة . . . وسأتصل به الساعة واحدد لك معه موعدا . فهل لديك ملاحظة على ما أقول ؟ »

« لا ، أشكرك ، غير أنى أحب أن أقول لك مبدئيا إنى سأدبر المال بنفسى . »

واتصل الطبيب بالفعل بصديقه المهندس ، وحدد لى موعدا لمقابلته فى أحد المقاهى ، كما اتفق معه على طريقة المقابلة . . . وج . المهندس هذا فتى فى شرخ الشباب ، مشوق القامة ، أشقر الشعر ، على جانب عظيم من الدهاء . سألنى أن أشرح له قصتى فى إفاضة ، فشرحتها له من الألف إلى الياء فقال لى: « سأعطيك جوابا بعد ثلاثة ايام . »

وفى الموعد المضروب طلب إلى أن أمهله أسبوعا كاملا . . فأخذ الشك يدب فى نفسى من ناحية الرجل ، ولكنى اضطررت إلى النزول عند إرادته . وانتهى الأسبوع ، وزرت الرجل فى داره ، فقال لى : « جئت فى الوقت المناسب . تستطيع ان تعد نفسك الليلة للسفر . »

فنهضت من مكانى وشددت على يده شاكرا ، وسألته : « إلى أين ؟ » قال جادا : « إلى الحدود الفرنسية . »

فترددت قليلا ثم قلت : معذرة ، ولكن ماذا عساى أن أصنع على حدود فرنسا ، وليس لدى جواز سفر ، ولا أعرف أحدا هناك ولا بد أن البوليس الفرنسى سيلقى القبض على قبل مغادرتى البلاد إلى مصر ، فتكون النتيجة السجن فأعادتى إلى المانيا . »

« إذا شئت أوصلناك إلى باريس . . »

« النتيجة واحدة . ومع ذلك فأى الطرق سأسلك ؟ ومع من سأسافر؟ وبكم تقدر النفقات ؟ »

فقال الرجل مبتسما . « لاتهتم بهذه الدقائق ، فقد دبرنا لك كل شيء على مايرام . ستستقل سيارة من محطة تسو فى منتصف الليل مع زميلين عدا السائق ، وثلاثتهم يعرفون الطريق تمام المعرفة . وقد سلكوه غير مرة ، فقط اجتهد أن تكون خفيفا ، فلا تحمل معك من أمتعتك غير الضرورى . . »

وصمت الرجل ، فقلت له : « والنفقات ؟ لم تقل لى شيئا عنها . إنى أخشى أن أعجز عن تدبيرها فى الساعات القليلة الباقية . »

فكر السيد ج . قليلا ثم قال : « أنا أقدر ظروفك تمام التقدير ، وقد وطدت العزم على مساعدتك على إنجاح مشروعك . وقد تكلمت مع جمعيتنا بشأنك واتفقت معها على أن تسهل لك الهرب ، وتعفيك من النفقات ، وتمدك بخمسماية مارك لتدبر بها شؤونك فى فرنسا لتستكمل رحلتك . وإذا شئت ساعدناك كذلك فى فرنسا . فنى استطاعة الجمعية أن تعمل لك جواز سفر ، وأن تخفيك عن أعين البوليس مدة إقامتك فى باريس . . »

متعجبا : « كل هذا دون مقابل ؟ » .

« وفيم التعجب ؟ أنت رجل مضطهد ، ومن واجبنا مساعدتك . »

« سأذكر لك ولجمعيتك هذا الفضل ماحييت . »

« لا شيء ، لا شيء ، إذن أنت تفضل السفر إلى باريس . لا بأس سأعطى التعليمات بذلك لزملائك . وسأعطيك بهذه المناسبة محفظة بها بعض الأوارق لتوصلها إلى أحد أصدقائى هناك . . هذا رجل له نفوذ ، وسيساعدك إذا احتجت اليه . فقط يجب أن نفترض أسوأ الفروض ، وإن يكن هذا فى حكم المستحيل ، وأن سوء الحظ لازمك فى هذه الرحلة فى المانيا أو فى فرنسا ، ليكن جوابك

أنك لا تعرف زملاءك ، وهذا صحيح، وأنك ركبت معهما فى الطريق . . . لأنك لا تستطيع أن تستأجر عربة بمفردك . وأن أحد الناس الذى جمعتك معه إحدى الموائد فى بلد كذا قد رجاك أن تسلم هذه المحفظة فى طريقك لزيد من الناس وتذكر له أى عنوان يخطر فى بالك ، وأنك لا تعرف محتوياتها . وإياك أن تزيد حرفا على ماقلته لك . »

فوضح لى سر كرم هذا المهندس وكرم جمعيته فقلت له : « لا أشك فى أن هذه المحفظة تحتوى على أوراق سياسية على جانب من الخطورة ، ولست أخشى الخطر الذى يهدد حاملها ، ولكنى لا أشارك أصحابها الرأى . ولا أحب أن أكون أداة فى يد غيرى . . أنى أرفض السفر على هذا النحو . . . »

وافترقنا بعد مناقشة طويلة . .

واتصلت بصديق الطبيب فى اليوم التالى وحدثته بما جرى بينى وبين صديقه المهندس ، وزدت على ذلك أنى لا أحب أن أتورط فى شباك الجمعيات السرية ، وأنى مازلت مصرا على تنفيذ مشروعى . قال : « حسنا صنعت ، وعدا ذلك يجب أن تسقط من حسابك الهرب بطريق البر فثم عقبات الحدود مما يصعب تذليلها . فلم يبق أمامك إلا استخدام البحر ، وأظن أن أحسن الوسائل لتحقيق غايتك لا يكون إلا عن طريق المهربين ، وبالمال تحل مشكلتك . أعرف بالصدفة واحدا فى هامبرج ، فأذا شئت كتبت لك توصية له . . »

« هاتها وسأحمل الكتاب اليه بنفسى غداً » .

وقصدت هامبرج لأول مرة فى حياتى . ولم أجد عناء فى البحث عن الرجل وتفاهمت معه بشأن ترحيلى إلى مصر خفية ، فأفهمنى أن فى طاقته القيام بهذا العمل نظير ستمائة مارك يتناولها قبل السفر .

« هل لك أن تدلى إلى بشىء عن هذه الرحلة ، وهل هى مأمونة العاقبة ؟ » .

« ستكون على (كوتر) وتستغرق ثلاثة أسابيع ، وأنا الضمين لك بالنجاح وإذا كنت مصمما على هذه المغامرة تستطيع أن تعد نفسك للهرب بعد أسبوعين. لأن هذه الرحلة ستكون آخر رحلة (للكوتر) فى هذا العام بسبب ردامة الجو ، والا اضطررت للانتظار حتى الصيف المقبل . »

« هل سبق لك أن قمت بمثل هذا العمل ؟ . »

« هذه صناعتى ، ومنها أعيش » .

وفى لمح البصر فكرت فى الأمر وقطعت فيه برأى ، وذلك أن أؤجل سفرى إلى الصيف حتى تتوفر لدى الفرصة للحصول على هذا المبلغ دون أن أرهق أحدا من أصدقائى ، وقلت له : « اتفقنا على أن يكون السفر فى فصل الصيف من العام المقبل ، على أن نظل على اتصال فى غضون ذلك. »

الآن أحسست بشىء من الراحة ، وهدأت اعصابى المتوترة ، فأمامى غاية أعمل لها ، ولدى وقت كاف لأفكر فيه ، وأدبر المال اللازم لسفرتى دون إرهاق أحد من أصدقائى ومعارفى . وأول ما خطر فى بالى أن أعمل على زيادة دخلى ، وأن أقتصد من نفقاتى اليومية بقدر الطاقة . وأخذت بالفعل منذ ذلك اليوم أقتصد فى كل شىء حتى أصبحت أقرب إلى الراهب المتقشف منى إلى إنسان يجد فى كماليات الناس ضروريات له . فوضعت ماركا فوق ماركا وكلما تجمعت عندى بضعة ماركات حملتها إلى صندوق التوفير . ولم أغفل فى غضون ذلك إصلاح ملابسى وإعداد كل مايلزم لهذه المغامرة .

وفى كل يوم أعد الأيام وأحسب الماركات ، وأقول ، مضى كذا ، وبقى كذا ، ومضى الآن كذا ، وعلىّ أن أحصل على كذا . ولم أشرك أحدا فى مشروعى هذا ، ولا أفضيت بسرى الرهيب إلى أحد ، بل احتفظت به وبتنفيذه لى أنا وحدى . كلما جمعت مائة ماركة لهذه الغاية انتشى من السرور حتى أخرج

عن الطوق فأمرح وأمزح مع أصدقائى ومعارفى على غير عادتى معهم . حقا إن فى الارقام لسرا طالما هزأت ممن يقول به .

وانقضى عام ٣٦ ، وجاء عام ٣٧ فاستبشرت خيرا ، وقلت هذا عام الخلاص وطوى الشتاء صفحاته وفتح الربيع كتابه وأخذ يطوى أوراقه ورقة بعد ورقة ، وابتدأ الصيف يزاحم الربيع ، ولم أنته بعد من جمع نفقات الرحلة ، وإن يكن قد بقى على جمعها القليل ، وكنت فى غضون ذلك أكتب من وقت لآخر لصاحب (الكوتر) فى هامبرج أستعلم منه عن مواعيد سفره . وكانت العادة أن يقوم هذا الرجل بمغامرة إلى البحر الأبيض المتوسط مرة فى كل شهرين ، وأخيرا اتفقت معه على أن يكون سفرى فى أواخر شهر اغسطس من ذلك العام حيث أكون قد أتممت استعداداتى .

فلننتظر ...

خيبة وتعلة

فى أواخر مايو عام ١٩٣٧

ذهبت الى المعهد الألمانى الملحق بجامعة برلين لأوصى مديره وبعض أساتذته على أحد العراقيين الذى قدم حديثاً إلى برلين . وكانت صلتى برجال المعهد صلة صداقة وحب واحترام . وحدث بعد أن أنجزت المهمة التى ذهبت من أجلها أن حدثنى المدير عن قرب افتتاح فصل الصيف الأعدادى لامتحان الدبلوم فى التربية وتدريس اللغة الألمانية . وعرض على أن أزور هذا الفصل .

فقلت له : « لا أعرف شيئا عنه ، فهل لك أن تزيدنى بيانا ؟ » .

قال : « هذا فصل نفتتحه فى كل عام لأساتذة اللغة الألمانية فى الخارج لتنويرهم ، وصقل لغتهم . وفى مثل هذا الوقت من كل سنة يفد إلينا عدد كبير

منهم ليشحذوا معارفهم فى اللغة الألمانيه ، ويطلعوا على أحدث المؤلفات وأساليب التدريس عندنا ، وكلهم أو جلهم حائزون على شهادات جامعية من بلادهم تخول لهم تدريس لغتنا فى مدارسهم وجامعاتهم . ولما كان لدبلوم معهدنا فى هذا الفرع قيمة علمية أكبر من شهاداتهم ، فأن بعضهم يتقدم فى آخر الدارسة للامتحان لنيل شهادتنا . »

قلت : « ولكنى صحفى ، وأعز مهنتى ، وأفضلها على كل عمل آخر فى الحياة ، ولا أفكر فى أن أكون يوما ما أستاذا للغة الألمانية ولا أحمل إجازة جامعية . وفوق هذا فمواردى لا تسمح بدفع نفقات الدراسة . »

فقال : « وما يضيرك أن تحصل على شهادة معهدنا ؟ ولست فى حاجة إلى شهادة فى اللغة الألمانية من إحدى الجامعات ، فأنت تتقنها وعلى اطلاع واسع فى أدبياتها ، بل أنا واثق أنك تجيد اللغة أكثر من حملة هذه الشهادات . وسنقبلك عندنا بالمجان . وأظن أن عملك فى الصيف يسمح لك بزيارة قاعة المحاضرات . . فماذا ترى ؟ » وناولنى نسخة من البرنامج .

قلت : « سأدرسه فى الدار ، وأعطيك غداً أو بعد غد جوابا . »

ودرست البرنامج فى غرفتى بعناية . فوجدت أن المحاضرات تبتدىء من الساعة الثامنة صباحا وتمتد إلى السادسة وفى بعض الأحايين إلى الثامنة مساء ، حتى يستفيد الطالب من هذا الفصل كل ما يمكن الاستفادة منه . ولا بد للطالب أن يكون متمكناً من اللغة وقواعدها وآدابها . واجتياز الامتحان ليس من الأمور الهينة ، فسيكلف بألقاء درس فى أحد الفصول ، ويكتب رسالة فى موضوع أدبى أو فلسفى ، ويمتحن شفويا وتحريريا فى قواعد اللغة وآدابها وفقهها وفى التربية وتاريخ الثقافات ! وفى التاريخ العام والجغرافيا . الخ . وكان مرفقا بالبرنامج كشف بمئات الكتب والكتاب لا بد أن يكون الطالب على المام

بها وبهم ، ولم تكن غريبة على . فكرت طويلا ، وقلت هذه الفرصة لم تكن فى الحسبان فلم لا أنتهزها قبل عودتى إلى مصر ، وهى لا تكلفنى شيئا . فأنظم معلوماتى . وإذا قيض لى النجاح فى الامتحان فهذا سلاح لا بأس به . وهذا موعد لحسن الحظ يقع قبل سفرى بأيام .

فدققت لمدير المعهد تليفونا لقيد اسمى مع المشتركين فى هذا الفصل .

وفى أوائل شهر يونيو أخذت مجلسى فى قاعة المحاضرات بين ٣٥ أستاذاً ودكتوراً من مختلف الجنسيات . وبينهم الأمريكى والصينى واليابانى والانجليزى لهم كلهم جنسيات ودول تحميهم إلا أنا فلم تكن لى جنسية ولا دولة أخفر برايتها . كما كانوا ينفقون عن سعة ، إلا أنا فقد كنت أعيش عيشة تقتير وإمساك . وكان عدد النساء فى الفصل يكاد يوازى عدد الرجال .

وكنت أكثر الطلاب مواظبة على الدرس ، وإصغاء للمحاضرين . وربما كان الدافع لى على ذلك أنى الوحيد بينهم الذى لا يحمل إجازة جامعية ، والوحيد الذى يدرس بالمجان ، والوحيد الذى يتمرغ فى الوحل . فأردت أن أغطى نقائصى بالجد والاجتهاد والمثابرة . وطلب إلينا أستاذ الآداب فى المحاضرة الأولى أن يلقى كل واحد منا محاضرة فى موضوع يختاره الطالب على أن لا تكون المحاضرة مكتوبة . . وعلى أن لا يستغرق إلقاؤها أكثر من نصف ساعة . وله وللطلبة حق مناقشتها . ولما كنت أجلس فى أول صف وفى أول مقعد ، كان على أن أفتتح هذه المحاضرات . وكنت ممرورا من حياتى إلى أوربا فاخترت موضوع محاضرتى ـ نقد المدنية الغربية ـ فهاجمتها وفندت أسسها . وختمت محاضرتى بأن واجب الشرق أن يحمى نفسه من هذه المدنية الكاذبة الخاطئة ، ولو استلزم لذلك بناء سد بينه وبين أوربا أعظم وأحكم من سد الصين . ولما انتهيت من القائى ظننت أنى قد جرحت الأستاذ وجرحت زملائى . وكم كانت دهشتى عظيمة عندما رأيت

الأستاذ يثنى على ثناء عاطراً . ورأيت الطلبة يبدون إعجابهم بالمحاضرة والمحاضر. والتفت نظر الجميع إلى منذ ذلك الحين . فبت صديقا لهم .

وحدث بينى وبين الطلبة والأساتذة فى غضون الدراسة حوادث طريفة لا يتسع لها صدر هذا الكتاب . وجاء موعد الامتحان فتقدم له خمسة من ستة وثلاثين . واخترت لرسالتى الشاعر ـ شتيفن جورجا ـ من شعراء الألمان الحديثين . وهو شاعر يعز على كثيرين من الألمان أنفسهم أن يفهموه . وحاول أساتذة الجامعة أن يثنونى عن الكتابة عنه . وأبيت إلا أن يكون موضوع رسالتى . وقد كان . وقيض لى الفوز فيها فكانت أولى الرسائل ، حتى أن المعهد نشرها فى مجلته . وألقيت درسا فى أحد الفصول الذى كان يدرس فيها بعض المصريين المشتغلين الآن فى بنك مصر ثم تلا ذلك الامتحان التحريرى فى المواد التى ذكرتها فى صدر هذا الفصل فاستمر أسبوعا كاملا . فكانت إجاباتى كذلك أحسن الأجابات . وحددوا لى موعدا للامتحان الشفوى فى أول الأسبوع التالى . وحدث وأنا أتهيأ للذهاب إلى المعهد أن تسلمت كتابا من هامبرج ينبئنى فيه صاحبه بموت صاحب (الكوتر) وذلك ردا على كتاب منى للرجل أنبئه فيه عن استعدادى للهرب . فكانت صدمة شديدة بعد طول الصبر والانتظار . يا لخيبة الأمل والرجاء !

فذهبت إلى الامتحان الشفوى خائر القوى لا أعى شيئا . ودخلت أمام لجنة الامتحان فى حالة ذهول ، فلمحوا ذلك على وجهى ، فحسبونى من الذين تخور أعصابهم إذا وقفوا أمام ممتحن ، فأرادوا أن يدخلوا الطمأنينة على قلبى ، فقال رئيس اللجنة : « حقا إن إجاباتك التحريرية كانت موضع إعجابنا ، كانت آية فى الأبداع ولكن لاعجب فقد قدم أساتذتك تقريرا عنك كله ثناء وإطراء . »

فلم أجب على تحية الرئيس بحرف واحد

وتالبوا على واحدا واحدا يسألونني فى مواد الامتحان المختلفة، ولكن كل شيء كان قد تبخر من رأسي وأصبح فارغا . فكنت أصمت أو أجيب على أسئلتهم بأجابات تافهة . حاول الأساتذة معي المستحيل ، وعبثا حاولوا ، فلقد كانت خيبة الأمل التي منيت بها ، قبل الامتحان بساعات ، فادحة ، وأخيراً قال أحد الأساتذة :

« أنت تعرف بدون شك القاهرة حق المعرفة . . صفها لنا . »

فعجزت كذلك

فأراد الرئيس أن ينقذ الموقف بأى ثمن فقال : « مالنا وللقاهرة وبينكم من لم يرها . ليصف لنا برلين فقد طال مكثه بها كما نعلم . سيكون وصفه لها بدون شك طريفا ، فنظرة الأجنبي لبرلين ستكون غير نظرتنا لها ، وعلى الأخص إذا كان صاحب الوصف نقادة كصديقنا » .

فلم أوفق فى هذه المحاولة ، وكانت إجابتى إجابة طفل . فتبادلوا النظرات معا ثم قال الرئيس : « تفضل وانتظرنا قليلا فى الغرفة المجاورة . »

لماذا انتظرت هؤلاء الناس ؟ لا أدرى ! لم يكن ثم شك فى رسوبى فى الامتحان . وليس من المعقول أن انتظارى كان من باب الأدب والمجاملة بناء على طلبهم ، فقد كنت فى حالة لا تسمح لى بالتفكير فى قواعد اللياقة وآداب السلوك ، ولكن لعلى فعلت ذلك لأنى كنت مسلوب الأرادة . . . .

وبعد قليل أو كثير لا أدرى جاء الرئيس إلى غرفتى ، ومد يده الى مصافحا وهو يقول : « اللجنة مقتنعة أن حادثا قد حدث لك قبل قدومك إلى الامتحان ، وقد قدرت إجابتك التحريرية ورسالتك البديعة عن جوزجا ، قدرت كل الظروف وقررت منحك الدبلوم (بدرجة متوسط) . »

« لا ، يا سيدى ، لا أريد دبلومكم ، احتفظوا به لأنفسكم ، وامنحوه لمن

يستطيع أن ينتفع به . » وخرجت دون أن أسلم وألتفت ورائى .

لقد هدم فى لحظة ما بنيته من قصور ، وتناثرت آمالى فى الهواء ، وذهب اجتهادى وجهادى فى سبيل الفرار أدراج الرياح . وهكذا كتب على فى منفاى كلما تقدمت خطوة الى الأمام أن أرجع خطوات إلى الوراء . فماذا أنا صانع اليوم ؟ وهبنى وجدت (كوتر) آخر ، ورجلا ثقة كذلك الرجل الذى مات ، فسينقلب جو البحار بعد أيام ، ومعنى ذلك أن أؤجل السفر عاما فى هذا الجحيم الذى أقيم فيه . وأين أجد صاحب (كوتر) يجرى قاربه بين بحر الشمال والبحر الأبيض المتوسط ؟ يقولون المال كفيل بحل المشكلات . وهذه مشكلتى قد تعقدت فى الوقت الذى أفعم فيه جيبى بالمال . قتل الناس وقوتلوا فى كل ما يقولونه ! ما أكذبهم ، إنما الرءوس وحدها هى خير ضمان للنجاح والأنجاح ، ولو استعملت رأسى لحظة لاحتطت للأمر ، فقربت موعد سفرى ، أو لتعرفت بأكثر من مهرب ، ولكنى بدلا من ذلك أجهدت هذا الرأس الضعيف الفقير الفارغ فى جمع المال . إنها لهزيمة نكراء . هذه حلقة فى سلسلة هزائمى المرة التى لا أعرف لها أولا ولا آخر . أما من سبيل إلى النصر ؟ آه ، لو لاحت لى تباشيره ولو مرة واحدة ! ! !

وإلى هنا كنت قد عدت شيئا فشيئا إلى نفسى ، وكأن محاسبتى لها والقسوة عليها قد أعادتنى إلى وعيى ، فآخذ فى تشجيعها فأقول : « فيم الولولة والنحيب ، والجزع ؟ إن الرجل لا يمتاز على أقرانه إلا بالصمود للهزائم ، والمعدن الحر إذا صهرته النيران خرج أنقى وأصلب مما كان عليه . أليس لى عبرة فى فلان وفلان ممن كانوا لا يبسمون إلا للأحداث فقط ، بل يجدون فيها مشجعا على الكفاح ؟ الصعاب يابنى محك الرجال . إلى الجبال ! إلى الجبال ! لقد ضاق بى البر والبحر ، فألى الجبال ، الى الجبال ، أنشد فيها الراحة والاستجمام أياما

وسيكون لى أمر بعد ذلك . ولم أكن قد عشت فيها قبل اليوم ولا أحببتها ولا عجب ، فسكان الأراضى المنبسطة لم يعرفوا سحر الجبال يرهبونها . وقصدت فى الحال إلى أحد مكاتب السياحة ، وابتعت تذكرة إلى جبال الهارتز ، ثم قصدت إلى الدار وجمعت ملابسى وبعض الكتب ، ووقع اختيارى على قرية ـ تالا أم هلا .

ثم نزلت فى أكبر فنادقها ، وجلت فى القرية جولة لأتعرفها ، فألفيت بها دارا واحدة للسينما ، ودارا للبريد ، وفيلا بديعة التنسيق ، ونهيراً قريب الغور لا ينقطع خريره ، وبعض الفنادق والمقاهى ومتنزهات هنا وهناك ، ودكاكين متواضعة ، وجبالا شاهقة مخضرة ، لا ينقطع صعود الناس إليها وهبوطهم منها . فأجلت اختبار الجبال إلى اليوم الثانى . وقضيت المساء فى صالة الفندق ، وفى الصباح الباكر رأيت جماعة من الشباب والشيوخ نساء ورجالا قد ارتدوا ملابس الجبال وأمسكوا عصيا مدببة استعدادا للصعود فى الجبال ، فاقتفيت إثرهم على قرب منهم ، فصعدوا فى طريق معبد أشبه بالدروب تحفه الأشجار الباسقة عن اليمين وعن الشمال ، يلتف إلى اليمين تارة ، وتارة إلى الشمال ، وطورا يكون مستقيما ، وآخر أفقيا . سرت وراءهم وكلما وقفوا أو جلسوا على بعض المقاعد الطبيعية ، وقفت متشاغلا ببعض الأشياء حتى بلغوا قمة الجبل فى ساعتين ، فبهرنى جمال المنظر ، فثم أرض مطمئنة ، وثم مقاه وفنادق ، وثم أغوار ونجود تقوم عليها أشجار ونجوم ، فاسترحت قليلا ، ثم أخذت أسير هنا وهناك ، فرأيت لأول مرة مسرحا خلويا فابتعت تذكرة لشهود إحدى روايات شكسبير . ولما أردت النزول سألت عن الطريق فقيل لى ، إن كل الطرق مؤدية إلى روما !

قضيت هناك ١٥ يوما ، مضت كيوم واحد ، تعرفت فيها ببعض المصيفين والمصيفات ، وعادت إلىّ قوتى فى هذه الفترة القصيرة التى اختلستها من الزمن اختلاسا . وأخذت القطار عائدا إلى برلين . وفى نيتى أن أكرر هذه الزيارة متى

سنحت لى الفرص . فعلمت من صاحبة الدار أن رئيس المعهد الألمانى قد سأل عنى عدة مرات بالتليفون فى أثناء غيبتى ، وأنها لم تستطع أن تعطيه جوابا عنى فرجاها أن تسألنى أن أتصل به عند عودتى . فطلبته فى اليوم التالى . فسألنى أين كنت ؟ ورجانى أن أزوره بعد غد لتناول الشاى مع عائلته وبعض أصحابه ، وأخبرنى أن زوجه زيادة فى إكرامى قد أحضرت لى شيئا من الحلوى الشرقية (حلاوة طحينية وملبن) ، وأنه لن يقبل منى اعتذارا . فقلبت دعوته شاكرا .

وفى الموعد المحدد كنت فى داره فلقيت عنده عدا عائلته عددا من النساء والرجال قدمهم إلى واحدا واحدا . وبعد أن فرغنا من شرب الشاى ، انسحبت النساء وبعض الرجال وبقى العميد ومعه بعض الأساتذة ، فاقترحوا علينا أن ننتقل إلى غرفة المكتب لنتحدث معا بعض ساعة . وهناك ابتدأ أحدهم الحديث قال :

« أشكر العميد الذى هيأ لنا فرصة التعارف بك ، فقد أعطانا نسخة من روايتك عائلة أبى الفضل التى وصفت فيها الحياة فى مصر فى غضون الخمسين عاما الأخيرة ، فتبادلناها معا ، والحق أنها أعطتنا صورة عجيبة عن هذه البلاد العجيبة . »

واشتركوا جميعا فى مناقشة روايتى نقطة نقطة ، مما دلنى على أنهم قرأوها بعناية . وانتقل الحديث بطبيعة الحال من الرواية إلى الكلام عن الأدب على العموم ثم عن عصوره ، فالكلام عن التاريخ والجغرافيا ففقه اللغة ، فعلم مخارج الألفاظ فغير ذلك من العلوم ، ولاحظت أنهم كانوا دائما السائلين أو المستفسرين عن رأيى ، وأنى كنت أنا المتكلم ، وخيل لى فى ذلك اليوم أنى قد تكلمت عن كل شىء فى العالم ، وأنى قد نهبت وقتهم وأثقلت عليهم ، وكنا قد قضينا معا نحو ساعتين على هذا المنوال وأحسست التعب من كثرة الكلام ، فمددت لهم

يدى شاكرا ومسلما ، فنهضوا جميعا من كراسيهم ، واحتاطوا بى قائلين وهم يبتسمون : « تقبل تهانينا . »

« لاشىء ، عفوا ، لاشىء . . »

وكان ذهنى قد ابتدأ يتبلد من التعب فلم ألحظ شيئا

فأغرقوا فى الضحك . فتساءلت مندهشا ، وأدركت أن إجابتى لم تكن صائبة : « علام هذه التهنئة ؟ »

« لنجاحك الباهر »

« فيم ؟ »

« فى اجتياز امتحان الدبلوم فى التربية وتدريس اللغة الألمانية بدرجة جيد جدا . »

فتغلبت على نفسى عنجهية السذج ، وقلت فى غيظ : « أكان هذا أمتحان ؟ أنا أمتحن ؟ أنا لا أطمع فى الحصول على دبلوم »

فقاطعونى وهم مستمرون فى ضحكهم : « انتهينا ، رضيت أو لم ترض »

« وهل تفعلون مثل هذا مع بعض الطلبة الذين يرسبون فى الاختبار ؟ »

كلهم فى نفس واحد : « لا ، لا ، هذه أول مرة فى تاريخ الجامعة الألمانية . لقد حفزنا على ذلك حسن إجابتك فى التحريرى ، وشهادة أساتذتك ، وإعجاب العميد بك . . . . . »

فغلبتْ علىّ رقتهم ، فشكرت لهم صنيعهم